خطوة خطوة إلى السجن

تأليف
اللواء/ عبد الرحمن أبكر الياسين

تصميم الغلاف : محمد عطيه

رقم الإيداع	٢٠١١ / ١٩٧٣٣
الترقيم الدولى	ISBN 978- 977 - 02 - 7570 - 5

١٠٣/ ٢٠١١/ ٢

مقدمـــــة

منـذ الأزل والإنســان يعيش حالة صراع دءوب مع قـوى الطبيعة محاولًا الظفر بالنصر عليهـا كضـد يهدد بقاءه، يصفها أهل الدراية بشـئون الحياة بالصراع مـن أجل البقاء.. يصارعها بما أوتى من بصيرة؛ لتذليل صعابها، يستصلح عناصرها ويحيِّد مخاطرها؛ ضمانًا لسلامة حياته.

وفـى خضم هذا الصراع يبدو المشـهد يدور فى حلبتين: الطبيعة والإنسـان الذى يدير صراعه معها بعقله، يشـحذ لها طاقاته المادية والفكرية؛ لتطويعها لمصلحته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، بصورة تعاون بين بنى البشر؛ باعتبار أن المصير مشترك فى المجال الحياتى على وجه الأرض.

فإذا كان هذا الدور يقوم على صعيد تعاونى لسكان المعمورة؛ لتحقيق مصلحة عامة. فإن ثمـة دورا إقليميا يقوم على عاتق الجماعـات الإقليمية لتتكامل الأدوار وتصب فى النهاية فى وعاء المصالح الإنسـانية قاطبة. فما يهم جماعة فى أقصى الأرض هو محل اهتمام فى وسطها ومن فى أطرافها؛ لأن الكيان الإنسانى واحد يتأثر أىٌّ منهما بالآخر.

مثل هذا المشـهد نراه ينسـحب على الأفراد، فالذى يريد أن يحقق طموحاته الحياتية عليـه خـوض صراعه مـع الحياة بإدارة عقلانيـة على صعيده المحلـى؛ لإثبات ذاته فى بيئته؛ ليستحق استحقاق العيش الآمن فى أرضه؛ لتلبية متطلباته وإشباع رغباته الأساسية والترفيهية فى دائرة تنافس كل على حسب كفاءته وحسن إدارته لذاته؛ لضمان حياة كريمة يتكافل فيها مع بنى جنسه، تؤهله لحياة شريفة فى جو من التوافق مع مصوغات الحياة، متضامنًا مع مجتمعه، فى إطار مضمونة أمان نفسـى واطمئنان معيشـى يوفِّر له مصدر رزق مادى واعتبار معنوى، لا تشـوبه شـائبة أو تلّوث جوانبه شـائنة من يثبت جدارته متقدِّمًا خطوة فى حلبة التنافس الشريف، منصرفًا لاكتساب موجبات حياته، ساعيًا لطلب رزقه.

أما من لم يتمكَّن من خوض معركته فى الحياة بحسـبان وتروٍّ واتزان فلا ريب سـوف يخسـر ملحمة صراعه، تذروه رياحها خارج نسـق التوازن الحياتى، فغنى عن القول أنه عجز عن المواءمة بين وضعه الإنسـانى ووضعه المعيشـى، غير قادر على تكييف ذاته مع ظروف بقائه.

هنا يبرز الأمر بين حالتين: فمن صنع نفسه برويَّة هادفة فقد فاز وانتصر، أما من ركن إلى فشله وعجز عن التآلف مع آليات الحياة قعد منتظرًا أن تأتيه فرص الحياة دون أن يسعى لها سعيها، فهو كمن يقلِّب الموازين. فأنى له ذلك وهو المخلوق الذى أودع الله فيه عقلًا يتدبر، وفكرًا يتأمَّل، وطاقات تتحرك؟ بحكم أن الإنسان كادح بطبعه فى حدود ضوابط مشروعة وقوانين مرعية توازن المقام مع المآل والسعى مع الكسب، يصنع لذاته موقعًا اجتماعيًا يصلح به حاله ويؤمِّن وسائل عيشه توافقًا مع غيره، له ما لهم وعليه ما عليهم فى إطار التكامل الاجتماعى، فذلك من كَسبَ معركة الصراع من أجل البقاء بعد أن فطن إلى التكيُّف مع موجبات الحياة، مترسِّمًا طريق العيش الإيجابى فعاش آمنًا مطمئنًا ساكنًا.

أما الوجه المعاكس فهو من نصيب ذلك الذى لم يبذل جهدًا كافيًا لكسب العيش، ولم يهيئ نفسه للتنافس الشريف، فتراه يلجأ إلى أساليب ملتوية؛ لإثبات الذات، مغيِّرًا خارطة الصراع؛ لتحقيق نجاحات وهمية، يتجاوز الحدود المرسومة ويقفز فوق الأنظمة والقوانين، ينسفون المشروعية ونظمها، لا يقيمون وزنًا لقيم ولا يراعون أخلاقاً، ولا يلتزمون بمعانى الحلال والحرام أو المباح والمحرَّم. يسيرون عكس اتجاه السير، هو ومن على شاكلته عجزوا أن يحققوا نجاحات فى إطار الإيجابية فقاموا باصطناعها فى إطار السلبية، ناسين أن ما بنى على خطأ يبقى فى عين الخطأ، ومهما حيط بسياجات وأقيمت حوله حواجز ودعامات فلابد أن ينكشف وتتمزَّق أستاره ويتعثَّر مساره، يعض أصابع الندم مبهوتًا بالحقيقة المزيفة التى اعتنقها، عندها يعرف أنه لم يستطع أن يلعب لعبة الحياة كما يجب، مثل عباد الله الذين لعبوها منافسة شريفة على مضمارالحياة. يقول تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [سورة الجن: الآية ١٦].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [سورة الملك: الآية ١٥].

ليسعى سعيه متوافقًا مع منظومات الحياة، ملتزمًا قوانينها متوافقاً مع مجتمعه.

المؤلِّف

تمهـــيد

فكرة الكتاب

يقول عز من قائل وقوله الحق:

﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [سـورة الإسـراء: الآية ١٥]. فمن تدبَّر سنا هذا النص القرآنى فهو مرشـده إلى تربية النفس على الاسـتقامة باتباع الحق واقتفاء أثر الصلاح، وعاقبته محمودة بإذن الله؛ لأن مردها عليه أمان من الغواية وسياج من غوائل الأهواء ومستدرجات النزوات ونزعات الشياطين إنسًا كان أم جانًا، ليحيا حياة آمنة مِن نصب العيش أو ظنك الكد.

أمـا من لم يسترشـد بهدى ربه وأطلق العنان لهوى نفسـه فقد جانـب طريق الفلاح، تتقاذفه نوازع الشـهوات وزيغ القلوب؛ لإشباع الرغبات، تسـتمليه نزعاته. يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [سـورة الصـف: الآية ٥]. أى: عدلوا عن اتباع الحق وأسكنها الشك والحيرة والخذلان[1]. واسترسل فى طريق الخطأ، مفرطًا فى حق نفسـه فسـيجنى مردودها وبالًا عليه، لا يأمن غيلة النفس فتشقى حياته وتتعس أحواله. وفى هذا المقام يقول الله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [سـورة فصلت: الآية ١٦]. فحسب الإنسـان أن عمله إمَّا له أو عليه، يسـعده أو يشـقيه، فحسـن العاقبة من حسن الصنيعة وعكسها صحيح، فمن صنع سوءًا جنى سوء العاقبة.

فأحسن صنيعتك تسعد ذاتك، وتسر حالك، ويقم معاشك.

***

(١) تفسير ابن كثير.

مدخل الكتاب

لا أزعم أن هذا الكتاب بجديد فى عنوانه وتركيبة مواضيعه. أو أنه سيخرج عن نطاق الواقع المعاش. أو ما درجت عليه مؤلفاتى السابقة. بل منهم يستسقى متنه ونصه.

وقد يقبل عليه بعض ولا يعجب بعضًا. فمن أقبلوا عليه فعسى أن يجدوا فيه دليل نصح ومرشد فلاح. وأما الذين لا تروق لهم مادته ممن هم فى غيهم يبحرون فسوف يكتشفون لاحقًا أنهم كانوا مخطئين إذا ما شاكتهم شوكة سوء الأعمال ووخزتهم وخزة الغواية. وأصبحوا بذيولها نادمين. ووقعوا على أم رؤوسهم، وحلت بهم قارعة ما كانوا به مخدوعين. يودعون بها سجن العقوبة وقد أحاطت بهم خطيئتهم ومستهم آلامها. تلفح وجوههم معرتها. عندها سيذكرون حقيقة ما يدعو إليه الكتاب وما حذّرت منه موادُّه. فهو لمثلهم ومن على شاكلتهم؛ ليستبين باطل ما كانوا يصنعون ووهم ما راهنوا عليه. انساقوا إليه دون وعى أو بصيرة. ليذوقوا مرارة السجن ومذلّة العقوبة.

***

الحقُّ والباطل

الإنسان المدرك لبيب العقل، لا يغيب عن باله إطلاقًا المنازلة الشرسة بين الخير والشر منذ الأزل وإلى الأبد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فالخير معقود بالحق والشر معقود بالباطل وبينهما ساحة من العلائق المتشابهة وملتبسات متماثلة كما فى الحديث. «**إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ**»(١). لا يكاد يميزها إلا المُدرك الواعى، يفرزها بفطرته؛ ليقف على بَرِّ الأفعال من شأنها، متجنِّبًا الوقوع فى خبائثها، حيث خلق الله فى الإنسان العقل أداة تفريق بين حق وباطل، حسن وسيئ، جميل وقبيح، صائب وخاطئ، مستقيم ومعوج، ثم دعم العقل بآلة حسية هى بمثابة مجسات استشعار تستشعر التقوى من الفجور، تفزع عند الإقدام على عمل سيِّئ.

تلك ملهمات المدركات الحسية، فما كان فى دوائر السوية ينشرح له الصدر ويطيب بها الخاطر، وما كان فى دوائر السوء فزع منها القلب وتكدَّر لها الخاطر، كأنما توعز إليه بخطأ ما هو مُقدِم عليه تدعو للإحجام عنه. كما جاء فى تكملة الحديث الذى أسلفنا حيث شبَّه رسول الهدى عليه الصلاة والسلام من هذا حاله: «**فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ**»(٢).

أى من استشعر الشبهة فقد صان نفسه وبرئ وخلَّى بينه وبين أدران الحرمات وبراثن المنكرات وأصغى إلى الحق، وهكذا تبدو المنازلة بين حق وباطل فى قالب شدٍّ وجذب، فمهما احتدم الصراع وحمى وطيس المنازلة فالحق دامغ والباطل زاهق لا محالة، فالحق مناطه العقل والحس الفطن، وأما الباطل فمحركه الهوى وحاكمه الشهوة. وبين استشعار الحق والإقدام على الباطل وقفة صارخة من التبصُّر تناديه من باطنه إن أدرك مغزاها واستلهم معناها وتوقف عند لحظة الانقباض داخله متأملًا مدلولها فهى وقفة مراجعة، وإن تجاهل نداءها واستمر متماديًا فسوف تقوده إلى مجاهلها .

(١) رواه البخارى ومسلم.

(٢) رواه البخارى ومسلم.

تلـك لحظة فاصلة بين اسـتمراء الخطـأ أو الرجوع عنه إلى الحق. فالإنسـان الفطن واللبيب المتعقل تنهض داخله لحظة تردد ترسـل إشـارات سـريعة كسرعة وميض البرق الذى يضىء ثم ينطفئ، ترسـلها المجسمات الحسية، يفزع لها القلب، تستقبلها النفس. تسـتضىء بها جوانبها؛ تجاوبًا معها، فذلـك ملهم التقوى. فإن لم يتجاوب معها ويحلل معانيها فستنطفئ، تسوده ظلمة الهوى، فذلك ملهم الفجور.

تلك آلية التفريق بين سىء العمل وحسنه، باطله وحقه. فمن تخامره نزعة خشية من فعل غامض مجهولة هويته غائمة نتائجه يشـعر فيه بقلق وتوتر. فهو تحذير خفىٌّ يدعوه إلى الترك. من يعقلها فقد اسـتلهم التقوى ومن غفل عنها فقد اسـتلهم الفجور، سيقع فى سـوئها، تجره إلى أبواب السـجن مُحَمَّلًا بثقل الأسى، يفتح حوارًا مندهشًا: لماذا لم يصغِ إلى نداء القلب وما حاك فى الصدر؟!.

عتاب قاسٍ لما فرَّط فى حق نفسـه، تلسـعه لسعات التفريط هامسًا فى داخله متسائلًا: لمـاذا لم ألتقطْ إشـارات التحذيـر؟! فيتذكَّر عند ذلك أن قد انتابـه فزع خفيٌّ من مجهول ولم يعره اهتمامه، ولم يع أنه جرس إنذار بشـىء ما سـيقع لقاء عمل يُقْدِم عليه فى طياته باطل، عميت بصيرته ولَم يستجب لمجسَّات الإنذار ليعمل فيها عقله، فقد وقع فيما كان يتوجس منه خيفة.

وها هو الآن بعد أن حاق به باطله قد انكشف غطاؤه وأدرك مغبة تجاهله، خطَّت به إلى السجن وطوته قضبانه، فالباطل دائمًا متعارض مع تعاليم الدِّين ونظم الحياة وضوابطها المُنظِّمَة للنشـاطات التعاملية المانعة لارتكاب المنكرات أو الاقتراب من دوائر السـوء. فعدم احـترام القوانـين وتجاوز الحدود وافتئات حقوق الآخرين، تلك وما شـابهها تنازع الحق فـى سـاحته وتناصر الباطل فى غوايته، ومهما احتـدم الصراع فلا نصرة لباطل، فإن كان له جولة فإن للحق جولات وصولات. فالمعركة بينهما معركة سـوية وغواية، السـوية طبع الفطرة، الغواية طبع الهوى. فمن احتكم إلى عقله سَلِم، ومن أسلم نفسه لهواها خاب.

فالعقل إذاً هو مناط التفرقة بين حق وباطل، خير وشر. فمن يتوقَّ شر نفسه يعش عيشة مطمئنة، ويصغ مستقبله ويتعايش مع عباد الله هنيئًا مريئًا. ومن عاكس مسار السوية خسر ونال به الجزاء ليقضى جزءًا من حياته فى السـجن. هكذا المنازلة بين الخير والشر قائمة بدوام الحياة.

من يسر فى ركاب الشر يسلك مسالك السوء، يذبح الفضيلة على مذابح الرذيلة عنوانها الجريمة بأنواعها. فالجريمة هى الجريمة وإن تنوعت أساليبها ووسائلها فجوهرها واحد. فالقتل والسرقة والسطو والإرهاب وأعمال العنف، والاعتداء على حق، وسلوك مسالك الغش، والحيل والخديعة، والاختلاس، وترويج مخدرات، وقل ما شئت عمَّا تعلم واستعلمْ عمَّا لا تعلم من جرائم، ما كان لها أن تكون، لو أن أصحابها استشعروا نهاية مطافها، وفكَّروا فى مَرَدِّ عقوبتها.

فكل من دخل السجن كان تبعًا لأهوائه وميول نفسه، مندفعًا وراء متعة تزيِّن له عمله، فلو نظر نظرة متأملة كان يمكن تُجنُّبه من السجن. فقط لو سأل نفسه: إلى أين أنا سائر؟ فإذا نجحت فعلتى هل سأعاود كرتى؟ يغيب عنه احتمالية عدم نجاحه! وإن نجح فى الأولى فليس بالضرورة أن ينجح فى الثانية، فسيناله عقابها، فجزاء سيئته سيئة مثلها.

فعلامَ يقضى الإنسان على نفسه بتعطيل عقله وعمى بصيرته؟! ينسى أن له غاية لم يحققها بطريق مشروع، وله أمنية لم يستهدف خطها المستقيم، سَخَّر ملكاته فى مضامير السوءات وأرهقها فى ساحة المنكرات، عاقبتها سجن العقوبات، مُفَوِّتًا فرص القوت الحلال ومكتسب المباح.

فمهما تعددت أسباب الباطل فجوهره واحد، تجرُّ مريدَه إلى ما لا تُحْمَد عقباه، ومهما استعلى فإنه زاهق، فالحق ضربته قاضية وضريبته غالية، وهو يعلو ولا يُعَلَى عليه. ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨١]. الحق والباطل منظوران أحدهما: قائم لا عوج فيه، محفوف بالنواهى، من لزمه قاده إلى ما يرضيه فيسعده. والثانى: منصوب على الالتواء، محفوفٌ بالمعاصى، من لزمه جرَّه إلى ما يرديه فيشقيه.

والحياة التعاملية قائمة على هذين المنظورين: حق إيجابى وباطل سلبى، فالأول صائب مجاله والثانى خاطئ مآله، وبين الصواب والخطأ مساحة من المتفرِّقات يلتبس بها السلبى على حساب الإيجابى بقلب الباطل حقًا والحق باطلًا، فبعضهم يقبل على الباطل كما لو كان حقًا باقتراف الحرام تحت مظلة المتشابه فى صورة حلال، وتحت سقف الشبهة يقيلون أنفسهم من تبعة الحرمة متوهمين أنهم فى حلٍّ من حرمته، مستبيحين الحرم مستهينين بالعقوبة، تغشاهم حالة استلاب عقلى، ضالين الطريق وهم لا يشعرون،

وعن الضلالة عمون أو يشعرون. فيتعامون من أجل الوصول إلى مصلحة مكتسبة أو متعة محصلة. لاهثين وراء ملذات مكبوتة. اختلط عندهم الحابل بالنابل. فلم يفرقوا بين حلال وحرام ولا محظور ومباح. وبين موافق ومرفوض. بعضهم متعمدون وبعضهم الآخر مغررون. وبعض اختلط عندهم المحكم بالمتشابه وما هو حل وما ليس بحل. يستغلون المتشابه؛ لتحقيق مآرب، معتقدين أنهم في حِلٍّ من المساءلة. فإن نجحوا في تحقيق ما أرادوا فقد صدَّق عليهم إبليس ظنه. وإن لم ينجحوا أخذوا به فيتحجَّجون بأنهم وقعوا في التباس قائلين: اشتبه علينا الأمر. إذ لم تكن حرمته ظاهرة لنا، فوقعنا فيه على غير قصد.

أهكذا يكون العذر؟! إنه عذر أقبح من فعل وقد طوَّعت لهم أنفسهم شبهة الالتباس. منحازين به إلى ما يوافق هواهم. مبيِّتين عذر الاشتباه. آملين العفو من المؤاخذة؛ لأنهم لم يفقهوا حدود ما بينهما معتقدين بحلها. وهكذا يلبسون الحق بالباطل ويخلطون المحكم بالمتشابهة؛ لتبرير هوى النفس وتمرير المرتكبات تحت مظلته.

وفي هذا يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٢] وفي المتشابهة يقول تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٧] وفي الحديث: «**فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ**». فما جزاؤه إلا السجن. فإن لم يوازن المرء بين حق وباطل ولم يفرق بين سلبي وإيجابي وظل غارقًا في السيئ. فهو لا شك قد أصابته لوثة ذهنية تلبَّس بها فكره، تجعله غير قادر على التمييز بين سوى وغوى. فما التلوث الذهني؟

التلوث الذهني:

التلوث إجمالًا: هو ما يعكِّر صفو الشيء أو خالطه ما ليس أصلاً فيه. تحوّله من حالة الصفو إلى حالة التعكير فيوصف بأنه مُلَوَّث.

وما ينطبق على الأشياء ينطبق على الإنسان. فهو الآخر يتعرَّض إلى ما يعكِّر ذهنه فيوصف بالتلوث الذهني. فالأصل نقاء الذهن. فإن داخله فهم سوى في سياق المعرفة

السوية اتسعت رقعته وتفتَّحت آفاق معارفه. وإن خالطه فهم غويٌّ تشوبه شوائب الشبهات خارجة عن سياقات المنطق العقلانى، قاعدته تنظيرات جانحة ومنطلقها فلسفات شاطحة تنجـرف بـه إلى متاهات فكرية. يتأبط منطقها لتنحو بـه إلى منحنيات ذهنية، تبعده من نقطـة الاعتدال الفكرى بزاوية حادة يتقوقع فى مجالها الضيق. تشـده إلى مركزها مكونة مأزقًـا ذهنيًـا لا يرى إلا ما كان فى محيطها وما انطوت عليه مضامينها، منشـئة بداخله متغيِّرًا جديدًا يكون حبيس فكره، يتفاكر تبعًا له ويتصرف حسب توجهاته وما تملى عليه هواجسه وتوارد خواطره. فإن وافق المتغير الجديد هوى النفس تحرَّكت العواطف مستنهضة كوامن النزوات، يصفق لها ميول الرغبات، تستيقظ لها النزعات، تلهب غرائزه وتستجيب لنداء شهواته، يعبِّرعنها باختراق المنتظم والتمرد على السائد وكسر قوائم القوانين والأنظمة والتطاول على القيم وعمل المسيئات، يتوهم سلامة منهجها. مستسهلاً السير فى طريقها، مسترسلاً فيما ينشده من متع وما يلبى رغباته بمنظور ما تلوثَّ به ذهنُه.

والتلوث الذى نعنيه ليس التلوث المرضى الذى يعترى الإنسـان بسـبب مرض طبيعى وإنما المقصود التلوث العرضى الفكرى الذى يفتتن به فكره. يعتنقه مفهومًا جديدًا تشـبُّهًا أو تقليدًا أو محاكاة للغير، يخرجه عن سياق مجتمعه وبيئته المحلية متخلِّقًا بالجديد على حسـاب الموروث وبالمعوج على حسـاب القويم، يجرفه إلى ممارسـة سلبيات غير متوافقة مع أخلاقيات ما ألفه، تخدش الحياء وتشـجع على الخروج على الأنظمة وكسـر مضامين معهودة تشيع فسادًا. تلك لوثة فكر دخلت إليه أو أشربها عرضًا لا مرضًا. فما كان مرضًا فهو طبيعيٌ وما كان معوَّجًا فهو تلوث فكريٌّ ما كان له أن يكتسبه لو تأمَّل فيه مليًّا؛ لأنه سيجنح به إلى التفكير السلبى.

فهـذا يعنـى أن التلوث الذهنى المِعْوَج يخلُّ بميزان التفكير، ويبرهن على هذا أن كثيرًا ممن كانوا يعتنقون أفكارًا شاطحة يتراجع أحدهم بعد حين إذ يكتشف زيف فكرها وباطل مفهومها، افتتن بها منقادًا إليها دون فحص وتدبُّر، حيث أدرك لاحقًا أنها تخالف مسار العقلانيـة فأفضت به إلى سـلوك دروب موبوءة تتدرج به إلى التمـرُّد على المعتاد تائهًا فى ردهات المرغوب.

ويتوِّج هذا التصوُّرعن التلوث الذهنى الحديث المروى فى صحيح مسلم عن حذيفة قال. سمعت رسـول الله – صلى الله عليه وسـلم – يقول: «**تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَـى الْقُلُوبِ عَرْضَ**

الْحَصِيدِ، فَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ الْقُلُوبُ عَلَى قَلْبَيْنِ: قَلْبٍ أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا لا يَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَدًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، وَأَمَالَ كَفَّهُ، وَأَنَّ أَبَا يَزِيدَ، قَالَ: هَكَذَا وَأَمَالَ كَفَّهُ: لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إلا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»[1] مما يفسر الارتباط بين الفكر والسلوك مترجمًا حالة الشخص العقلية. فإذا كان العقل سليمًا كانت مخرجاته سليمة وإن كان ملوثًا فمخرجه يأتى تبعًا له، فالذهن الخالى مما يعكر صفوه يسلك بصاحبه مسالك السوية؛ لأن العملية الذهنية عبارة عن تفاعل ذهنى بين مكونات العقل الفكرية ومكتسبات المعرفة وهو الجوهر الذى تقوم عليه العمليات الذهنية، وفى محيطها تتحقق عوامل التوازن النفسى والفكرى التى تقود الإنسان إلى سلوك سوىٍّ فإن شابها ما يلوِّثها تأثَّرت العملية الذهنية بها وتعكَّر جوهرها. فكما تعتل الأجساد كذلك تعتل الأذهان.

والخلاصة التى نتوصل إليها هى:

أن السلوكيات المنحرفة التى هى نتاج نبتة لوَّثت الذهن تشكل أرضية تترعرع فى ثناياها مستحبات تتجسد فى تصرفات غير منطقية وممارسات عابثة تجر إلى مزالق الاعوجاج. هنا تبرز العلاقة بين التلوث والانحراف، فما كان ذهنًا صافياً خالياً من التشويشات وهفوات الخلجات يأتى نتاجه قولاً معروفاً وفعلاً صائباً، وأما ما كان ملوثًا فإن نتاجه فكرًا جانحاً إلى الإغواء بفعل ما عَلِق به من لوثة عكَّرت صفوه.

فكما تتلوث الطبيعة فإن الذهن هو الآخر معرَّض لتلوث الأفكار، وتبعًا له تسعه أفكار يختلط حسنها بسيئها وخيالها بواقعها ملبسة بتنظيرات وتوجهات أيدلوجية واقتباسات فلسفية كان بإمكانه تنقيتها وفرز حقائقها قبل أن تتمكَّن منه، فمن سلم ذهنه من التلوث سلم مسلكه من منزلق الانحراف؛ ذلك أن النفس البشرية مسكونة بفاعلين: فاعل التقوى، وفاعل الفجور. قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾[سورة الشمس: الآيات ٧ – ٨]. قيل فى تفسيرها: أى خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة. قال ابن عباس: فى معناها«يبين لها الخير والشر»، ويأتى فى سياق الآية قوله سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾ [سورة الشمس: الآيات ٩ – ١٠]. فمن

(١) أخرجه مسلم.

زكّى نفسه بالطاعة وطهّرها من الأفعال الدنيئة والرذائل القبيحة فقد أفلح، ومن دسّها أى أخملها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى حتى ركب المعاصى وترك طاعة الله فقد خاب وانتكس[1].

فإن توافق مدسوس الشر مع اتباع الهوى فسوف تنبت لوثة الانحراف، ترويها نزوات وتعزّزها تأويلات تحرفها عن مسارها الحقيقى. يتشبّث بها صاحبها، وشيئًا فشيئًا تتنامى فى حضن الميل النفسى فيتسع حيِّزها، يعاقره فيها هواه، يبعده عن قوام الاستقامة، تشكل له خيالات وتلوّن له أوهامًا، فيلبس ذهنه بالغواية ويحرفه عن القوامة فيقع حبيس أوهامه فلا يتصرف إلا بوحى ولا يقول إلا بتأويلاتها، تخيم عليه انفعالات شعورية لا يرى إلا بمنظوره ولا ينقاد إلا فى طريقه كما لو كانت بوصلة توجهه صوبها حيثما اتجهت وتحرفه حيثما انحرفت، مكرِّسًا نفسه تبعًا لهواه لتصبح مكوِّنًا ذهنيًا يسيطر على قواه الفكرية، تستميله إلى ما تريد، وبذلك نصل إلى خلاصة مؤداها معادلة الفعل ومردوده؛ ذلك أن الأهواء المطلقة والشهوات غير المقيدة والإغراق فيها تغرى بأفعال زائغة عن معتاد الواقع الطبيعى.

وطبقًا لحقيقة (أن أى فعل له مردود معاكس) فإن من يرتكب جرمًا أو يعمل عملًا مُنكَرًا أو يميل ميلًا غير صائبٍ أو يُقدِم على شائنة، يوفِّر لها أسبابها ويهيِّئ لها ظروفها ويحضِّر أدوات تنفيذها، تلك سلسلة تكتيكية تسهِّل له الوصول إلى مقاصده متصادمة مع المقاصد الشرعية والمُحللة قانونًا وعرفًا، مما يؤدى إلى تصادم بين المقصدين. ومن المعروف أن أىَّ تصادم بين قوتين يحدث عنهما ردة فعل. فما ردة فعل المقاصد غير المشروعة إلا الجزاء العقابى وكما يقولون: «لا يصح إلا الصحيح»، فيدفع الصحيح غير الصحيح ويغلب الشرعى غير الشرعى، عندها ينقشع قناع الهوى والتزيين والرغبة والميل واستلاب الحقوق والقفز فوق الحواجز والاستهانة بالحرمات واغتيال الأنظمة والركون إلى عوامل الشر وواهى الإلهام، ويسقط الفارس عن صهوة الفرس الموهوم إلى السجن مقودًا.

إنه مرد طبيعى لمرتادى الغلط والمستهينين بضوابط الحياة ومرتكبى الخطيئة. فأين المصير؟ أليس إلى سجن العقوبة؟!

---

(١) أخرجه مسلم.

وفى نهاية المطاف نود أن نتوصل إلى:

أن الخطيئة قبل أن تقع على أرض الواقع تنبع من منبت فكر تلوَّثت أوصاله. فهو حاضنها وقاعدة منطلقها الأساسى. وبذلك تكون الجريمة تفعيل حركى لفكر ملوَّث وهى عملية تناضح بين متنازعين يتنازع فيها العقل والهوى نستنتج منه:

مفهوم التناضح بين السوية والغواية:

إن أىَّ هواجس تطرأ على قلب الإنسان سوية كانت أو غوية مبدؤها فكرة طارئة يدخل على خطئها العقل يصوِّبها أو يخطئها. تتفاعل معها النفس الأمَّارة إقبالاً؛ ذلك أنه مغروس فى النفس البشرية، مصدرها إلهامان: إلهام تقوى وإلهام فجور كما أسلفنا القول. قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [سورة الشمس: الآيات٧ – ٨]. أى: أرشدها إلى ما فيه تقوى مبينًا لها الخير والشر. مما يعنى أن الإنسان واقع بين قوتى الشد والجذب، حيث تعتلج فى النفس فكرتان: أحداها تشدُّه والأخرى تجذبه. وعلى مدار التشاد بينهما تنشأ عملية تناضح، أيهما تنضح الثانية ؟ تمامًا كما ينضح الماء التراب العالق على صخرة صلدة فينضحه أى يجليه عنها بالغلبة، أو تزيله بطريقة الرش القوى فتنضحه، فالغالبة بين القوتين يعنى مدافعة بين البر وضده، فينزع السوى إلى ما هو بِر وينزع الغوى إلى ما هو فجور، فالبرُّ نزعة التقوى التى تسدى إلى السوية. والفجور نزعة الهوى الذى يسدى إلى الغواية. فمن استلهم ملهمات الفجور منشرحًا صدره فاتحًا أبوابه مهيئًا معابره تسلكه سبل الانحراف. وهذا يعنى أن مُلهم الشر نضح مُلهم الخير فكانت له الغلبة عليه. فبينما لو استلهم ملهمات التقوى وأغلق نوافذ هواه ونوازعه لنضح ملهم الخير ملهم الشر وغلبه؛ لأن الأصل فى الإنسان الميل إلى فطرة الخير.

والمعول هنا أن يستشعر الإنسان ما هو خير لطرد ما هو شر فى نفسه فكلاهما مغروس بداخله، فبقليل من التفكير وشىء من التبصر والاستعصام بالله يستطيع أن يُغلِّب جانب التقوى على جانب الفجور ويبرأ من زلات الهوى ومطاوعة نداء الشهوة وهواجسها النزقة.

دعونا نضرب مثلاً على ما ذهبنا إليه:

هب أنه عرض على إنسان كوبان مملوءان بالماء. أحدهما نقى والثانى عكر. فأيهما

سـيتناول ؟ بالطبع سيتناول الكوب النقى، يدركه بسليقته وهو إدراك طبيعى. وعلى غرار هذا فإن الهاجس قد يكون خيرًا أو شـرًا، خبيثا مستطيرًا أو طيبًا معتدلاً، معوجًّا أوشاذاً. فالعاقل يميل بعقله إلى الأفضل؛ لأنه ضمن إطارالطبيعة البشرية ومن عاكس الطبيعة جانب طبعها. بمعنى أنه لم يدافع نزواته ولم يناهض رغباته وفتح نوافذه عليها. ساكنته هواجس الغوايـة، تطوحه هبوبهـا. فالهاجس وعاؤه النفس ومقوده العقـل. فمن حيَّد عقله مقبلًا عليها فقد أعطى ناضح الهوى فرصة التغلغل؛ ليستحوذ عليه بمنطقه المقلوب.

المنطق المقلوب:

بعض مرتكبى الممارسـات الخاطئـة تتناضح أفكارهم وتتراوح هواجسـهم بين عقلانى وشـهوانى، غلبت عليهم لغة الشهوانية على حسـاب لغة العقلانية، يتراءى لأحدهم أنه قادر على ممارسـة مرتكباته، يخيل إليه أن فى بيده مبررات نظرية تزيِّن له ما هو فيه، ووسـائل مادية تغريه يسـخِّرها كما يشاء، يدارى بها على خطيئته حتى يُصوِّر له أنه فى بَرِّ الأمان، لا يدرى أنه مخدوع ليتمادى فى غيِّه مستطيبًا غوايته موهومًا بظنونه مستحليًا ملذاتـه، وكلما طال به الأمد اعتقد أنه فى حل من سـوء العواقب، يفوته أنه مهما زاغت عنه الأبصار مسـتترًا خلف الحجب، فإن الأيام كفيله بإماطة لثامه وإيقاعه صريع هواه، عندها يكتشف أنه كان يعيش فى وهم منطق مقلوب.

فلا يمكن لخطيئة أن تظل مستورة ويعيث فسادها دون أن يفوح ريحها، فحبلها قصير وإن طال بها الزمن، فيضحى ما اعتقد صحته منطقًا مقلوبًا منافيًا للواقع، يسوء به حاله، مستحيلاً دوامه. وإذا كان التلوث الذهنى بهذه الكيفية التى سقناها فالأمر لا يقف عند هذا الحد، فثمة ملوث آخر يفعل فعله فى تلويث الأذهان موصوفًا وصفًا دقيقًا ومسددًا تسديدًا تقنيًا محسوبًا.

فعالمنا الذى نعيش فيه اليوم عصر العولمة تتداخل فيه ثقافات الشعوب بغثها وسمينها، تسندها تطورات هائلة فى تقنية الاتصال والمعلوماتية، وما تطرحه أدبيات الكتب والمطبوعات وما تبثه وسائل الإعلام من خلال المد الإعلامى الموجه والأوعية الثقافية المصنوعة ومالها من نفوذ لا يمكن تجاهله. فإن حسبنا أن علينا أن نضع ذلك فى الاعتبار؛ لنعمل على تحصين الأفكار من سـطوة غزوها كما تبذل جهود لمكافحة الأمراض والأوبئة. مثلما هو الحال فى محاصرة أنفلونزا الطيور والخنازير؛ لتحصين الناس ضدها.

فبالمقابل منها ملوثات الأفكار، هى الأخرى ينبغى بذل جهود لمكافحة سمومها؛ تحصينًا للعقول ضد فيروسات الغزو الفكرى والثقافات الوافدة وحشو العقول بالأفكار الفلسفية وتعبيرات متلبسة يخلطون فيها الغث بالسمين كمن يدس السم فى العسل. تثير الغرائز وتهيج الرغبات، معتمدين على عنصر الإثارة والمغامرة المخرجة إخراجًا متقنًا. فيه من البراعة ما يغرى الشباب على الإقبال عليها واكتساب ملوثاتها.

والفرصة سانحة لحشو الأذهان بأفكار غير متوافقة مع طبيعة الشعوب المحافظة، يتأثر بها بعض الشباب الذين تعوزهم الموازنة بين صواب القول وخطئه وسليم العمل ومعوجه والمدسوس من الأفكار وصريحها. صاغتها نظريات صفراء وفلسفات حمراء إن جاز التعبير.

وفى هذا المكمن تتلوث الأذهان بتسريب المدسوس تحت جناح المرغوب ومعانى النصوص تفرز صورًا من تصرفات شاطحة من أولى أشكالها الإرهاب وأعمال العنف التى تسود العالم. فما هى إلا ترجمة فعلية لفكر معوج، وتأويلات غير متطابقة مع منطق الحياة مبنية على تحليلات ومنطقيات يعبِّرون عنها بأساليب القوة والعنف، ولو قمنا بتحليل أوليٍّ للغزو الفكري: نستخلص أن هناك علاقة بين متلقيات إعلامية عبر المنشور والمبثوث والمطبوع والمشاهد صوتًا وصورة وبين التلوث، إذ يتشبه بها بعضهم؛ محاكاة لها واعتناقًا لأفكارها. فليس كل ما ينشر أو يبث بالضرورة صائب أو خالٍ من الفبركة والدبلجة حيث تنسق مشاهدها بطرق فنية تخلط الواقع بالخيال والحقيقة بالمزيف؛ لإضفاء حالة من الأسطورية على أبطالها؛ لشحذ الإعجاب بشخوصها خاصة أولئك الذين يميلون للمغامرة وحب التقليد. وهكذا تتسرب أفكار الاعوجاج لتتلوث بها الأذهان. يسلكون بها سلوكيات سالبة.

فما السلوك السلبى؟

السلوك السلبى

خلق الله البشر ولم يتركهم نهبًا لأنفسهم أو لبعضهم بعضًا، فأنزل إليهم دستور حياة يضبط حركة نشاطهم بقواعد ملزمة تنظم سلوكياتهم، مقرونة بجزاءات مقررة يستحقها من يخالفها أو يستخف ببنودها ويسلك مسالك تخل بها، تخرجها عن مسارها .إنه السلوك السلبى.

وهو عبارة عن نشاطات وأفعال خارج الإطار الشرعى والسقف القانونى وما يدخل فى نطاقها من مخالفات الأنظمة والقواعد الضابطة لقضايا المجتمع، ناهيك عن الأعمال المزعجة والممارسات النازفة التى تخدش الحياء وتهوِّن الحشمة وتسىء إلى أخلاقيات التعامل أو لا تراعى حدود الحرية الشخصية والمصالح المجتمعية .

فما كان عملاً خارجاً عن تلك الأنساق يعد سلوكًا سلبيًا؛ لمنافاة توافقه مع مقتضى الحال الذى درج عليه الناس شاذًا عن السائد.

ولعلنا نعترف أن السلوك السلبى لا يولد من فراغ ولا ينشأ من عدم، إنما هو نتيجة لسبب يبدو فى عين ممارسه بسيطًا، حيث يبدأ بتصرف فردى ما يلبث أن يتفاقم تنتقل عدواه بالتقليد والمحاكاة من شخص لآخر، لتنتشر العدوى فى أوساط المستعدِّين نفسيًا والمتمردين اجتماعيًا وسريعى التأثر بغيرهم والمسكونين بالأهواء، يستعذبون الإقبال عليها دون تحفظ، وبتراكم ممارستها تصبح جزءًا من نشاطهم حتى إذا ما استفحلت شكَّلت ظاهرة طغت على سطح الحياة العامة فإن:

- تقاطعت مع تعاليم الدِّين فهو حرام شرعًا.
- وإن تعارضت مع وضع قانونى فهو محذور قانونًا.
- وإن تصادمت مع أعراف فهو منبوذ عرفًا.
- وإن تناقضت مع قيم فهو غير سوىٍّ.
- وإن تجاوزت حدود الدَّارج فهو سوء أدبٍ.
- وإن تجاهل مصطلح مقبول ومرفوض فى النظر العام فهو لا اعتبار ولا احترام.

وتحت تلك التقاطعات تضحى ظواهر سلوك سلبية، بعضها محل استياء يمكن معالجتها وبعضها مستنكر أصلاً. وتبعًا لذلك فهى على قسمين:

١ – سلوكيات محرَّمة شرعًا ومجرَّمة قانونًا ومحظورة عرفًا.

٢ – سلوكيات لا تقع تحت طائلة التشريعات لكنها تثير الاشمئزاز، وتخدش الحياء وتخل بالذوق، وتعبث بالرتم الاجتماعى يأباها الطبع الإنسانى.

فالقسم الأول معروف وضعه الإجرامى، محددة عقوبته شرعًا أو قانونًا. وأما القسم الثانى لا يوصف إجرامًا ولا عقوبة عليه إلا إنها أفعال غير مقبولة عرفًا. هذا النوع من السلوكيات مرشحة أن تتفاقم، يستمرؤها معتادوها، وبتواليها تأخذ طابع الاعتياد كمن يتعود على النصب وينتهج الحيل لابتزاز الآخرين، ومن يتصنَّع الإعاقة لاستدرار العواطف للحصول على المال، ومن يستغل موقعة لحصول منفعة، ومن يطلب رشوة مقابل إنهاء إجراءات معاملة. ومثل ذلك كثير من أساليب الخداع والتدليس وتزييف الحقائق أو إخفاء الوقائع، ومن يتسكع فى الطرقات الخلفية يتربص بالمارة، ومن يتصيد الغرباء، ومن يتعمد المجاهرة بما يتوجب ستره أو من يغرر بالآخرين بنشر أفكار منحرفة. وقل على شاكلة ذلك ما تعرف من أفعال وتصرفات بعضها ظاهرة وبعضها خفية تتم بعيدًا عن الأعين، تدار خلف الكواليس، تتكاثر فى بؤر الفساد. لا يكاد يراها إلا المتضررون منها. حتى إذا ما نتشرت وتمكَّنت يصعب التخلص منها وشكلت ما يسمى بسلوك العادة. وبحكم التراكم تتولد حالة من الألفة بينه وبينها، فيعمد صاحبها إلى انتهاج أساليب منحرفة تؤدى به إلى خروقات قانونية والتفاف على الأنظمة والتهرب من الالتزامات والتملص من الواجبات، وفى سياق ذلك تظهر ظواهر سالبة تترجم معانى السلوك السلبى.

وبهذا نجد أن السلوك السلبى مرتبط أساسًا بنهج فكرى غير طبيعى، هو مدخل للانحراف، والانحراف بوابة الجريمة، وكلاهما يرتعان فى سلة التلوث الذهنى .

تتسلسل مؤدياتها كما يلى:

تلوث ذهنى ← سلوك سلبى

سلوك سلبى ← انحراف

انحراف ← جريمة

يخرجنا هذا التسلسل إلى المفهوم الآتى:

أن التلوث الذهنى يورث السلوك السلبى وهو بدوره يورث انحرافًا والانحراف يولِّد جريمة وهو ما يدور فى مدار مضاد للفضيلة. ومدار التضاد بينهما إتيان الأعمال بأساليب

ملتوية مضادة للاستقامة. فمن يخرج عن الأصوليات ويسلك طرق الاعوجاجات ظانًا أنه يسير فى الاتجاه الصحيح، يقع فى سوء ظنه لينطبق عليه ومن تبعه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [سورة الكهف: الآية ١٠٤] فيشرب مقلب مظنته.

وهم الذين يقول الله فيهم: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة يونس: الآية ٣٦].

ولما كان الأصل فى السلوك الإنسانى إيجابية التوافق مع منتظمات الحياة، فإن زاغ مساره فقد امتطى طريق سلوك سلبى، مما يعنى عدم لزوم أدنى موجبات الانتظامية أو على الأقل التوقف عند الحد الذى ينبغى الوقوف عنده شرعًا وقانونًا وعرفًا متعديًا نطاق حدودها، تعدو به من وضعية الإيجابية إلى الوضعية السلبية، تسوِّغ له ارتكاب جنح يراها فاعلها أنها بسيطة لا حرج فى مزاولتها فى حين أنها منزلة ابتدائية من منازل السلوك السلبى، ومع كل مزاولة ينزلها معتقدًا بساطتها لا يرى فيها بأسا تتسع رقعتها، تنقله إلى منزلة متقدمة على طريق الانحراف. تستدرجه إلى سكة الغاوين، تقربهم يومًا بعد يوم وهم لا يشعرون تحت وطأة السلبية لتصل بهم إلى ارتكاب الجريمة فيستحقوا أن تطبَق عليهم عقوباتها تزج بهم فى غياهب السجون.

فمن ينزع إلى السلبية فقد وضع قدمه فى طريق محظور يزل به إلى عالم الإجرام. بينما الإيجابية طريقها مفتوح على المباح يتبوَّأ منها ما يشاء، لا يمسه بها سوء ولا غرم.

فيا من أقدم على سلوك سلبى اعلم أن فى داخلك رادع أمين لا تتجاهله. فى الناس لك منادٍ أنصت لنداءاته واخلع عنك ما أنت فيه قبل أن تقع واقعتك وتضيع فى مغبة مغامرتك. لا تخدع نفسك ويشدك ما يردِّده المتهوِّرون فى مقولاتهم الدارجة بقولهم: «اللى ما يجازف ما يجيب الغنائم». فأى غنيمة فى المجازفة؟! تلك مقولة ليس لها نصيب من الصحة. فمن اعتمدها خاب ظنه وارتدت عليه بأسًا وبؤسًا، فليس فى عالم الغواية ومسيئات الأعمال ومخالفة إيقاعات الحياة غنيمة؛ لأن المجازفة كثيرًا مآلها إلى خسارة وهو ما يعنى تهوُّر صاحبها ويمكن تشبيهه بمن يقدم على الانتحار ظانًا أنه لن يموت فيقع ميتًا. فكذلك الذى يدفع نفسه إلى السجن مع سبق الإصرار معتقدًا أنه فى منأى عن السجن فيدخله ولو بعد حين.

بعض منهم قد تعتريه حماسة أو يتصنَّع الجراءة مباهيًا بنفسه أمام من يشجِّعه، فلا تغترَّ بما يقال بأن إقدامك على عمل مخالف شجاعة، بل هو تهور، وهى صفة مذمومة تخطو بصاحبها خطوة تلو أخرى إلى السجن. على رسلك قبل أن تشرع فى أيِّ عمل يبدو ظاهره سليمًا، فربما باطنه على عكس ما تراه. استعلم نفسك فقد يكون وراءه معيبة أو مصيبة أو غشيشة أو ضليلة تضِل بك عن سواء السبيل.

فاستعلام النفس يعنى فتح حديث صامت للنظر فى مجهول؛ لتستبين مجاهله. مدَّ نظرك إلى ما هو أبعد واستنبئ باطنك واجعل العقل يتدخل فهو لك طوق نجاة بإذن الله.

تلك عملية استفتاء النفس دعونا نسميها بعملية:

«الوجدان الشعورى». فما كان ظاهره الإباحة فلا غبار عليه حيث ينشرح له الصدر. وأما إن كان غير ظاهر إباحته ففسوق يضيق به الصدر ويتكدَّر له الخاطر، فهذا يعنى أنه يحمل فى طياته قبحا. يتعارض مع شرع وقيم وأخلاق، وهو ما يصدق عليه الحديث الذى جاء عن وابصة بن معبد عندما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البر والإثم فقال له: «**اسْتَفْتِ نَفْسَكَ، الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، واطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، الإِثْمُ مَا حَاكَ فِى النَّفْسِ، وَتَرَدَّدَ فِى الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ**».

فقبل أن تقع فى محذور فكر قليلاً فى خط سيرك. فما أجمل أن يكون الإنسان حارسًا على نفسه! فما فائدة لحظة خبطة تفكيرعشوائى نزوى، تخبط بك سنين فى السجن وتحطك فى دوائر السوء، وحديث رسول الله يوصيك أن تكون لنفسك ناصحًا لا مستغفلاً أو مغررًا؟!

هل السلوك السلبى متحوِّل أم متأصل؟

من اعتاد على عمل السيئات وهامت نفسه فى مدارج المنكرات ومعارج المقبوحات فهو متعارض مع مشروع ومعقول وما هو شائن ومعيب، أول من يسوؤه مردوده هو الشخص ذاته. فهو من سيضار به، أولها سوء سمعته وليس هذا فحسب، بل سيتأثر به دربه المعيشى وتعوق مسيرة حياته، زد على ذلك نظرة الاحتقار التى يُنظَر بها إليه من قبل الناس حيث يستهجنون العلاقة معه والابتعاد عنه بعد أن التصقت به أوصاف مخجلة يأنف حتى الأصدقاء معاشرته؛ خشية أن تلحق بهم معرة فعلته كأن يطلق عليه: – حرامى – طائش – متهور – مختلس – مجرم – منحط – سافل – نمام – سكير – خالع – مدمن

مخدرات أو مروجها – مجنون – مخبول – مستهتر – ومثل هذه المفردات كثير وكثير.

تصمه معايب تحطُّ من قدره، ومثالب تضعه مواضع وضيعة وحطِّ معنوى، فضلًا عما سيعانيه من متاعب وفقدان ثقة، وقد تصل إلى شبه مقاطعة وإعراض عن مخالطته. كل تلك وما شبهها عقوبات معنوية يكابدها من يعانيها، فيضحى شخصًا منبوذاً يستنكف الناس من التعايش معه حتى لو كانت من قبيل سلوكيات عارضة غير مقصودة تلصق بها تشوِّه سمعته. فما ظنك بمن يعتادها مرة بعد مرة يعتقد عبثًا أنه لا يقدرعلى هجرها؟! فهل هذا الاعتقاد حقيقة أم وهمًا؟ بل هو وهمٌ. فمن استزلته نفسه لمزاولة سلوك سلبى فلا يعنى أن ذلك مطبوع فيه وأنه مختوم قلبه على السوء، فالأمر قابل لتسوية وليس من الصعوبة التحول عنه، إذ يستطيع الإنسان التحكم فى سلوكياته وتوجيهها توجيها إيجابيًا، فطالما قدر أن يخرج نفسه من موضع الفضيلة فالعكس حاصل أن يعود إليها عودًا جميلاً بالتحكُّم فى مشاعره بإدارته القوية.

فالمشاعر النزوية موجهة بقوة العاطفة بينما الإرادة موجهة بتفعيل العقل، فالقول أنه لا يستطيع كبح نوازعه قول يضحده الواقع الطبيعى إلا من أهمل الشق العقلى لتنفرد به المشاعرالتى يصبح مرتهنًا لها، تدعوه إلى ما يرضيها، يرتع فى ساحة أهوائها بلا مقود يوجه دفتها.

فإخلاء العقل يعنى استبعاده لتصبح المشاعر العاطفية هى الحاكمة، تصور له الرذيلة فضيلة وتحوِّل الخطأ صوابًا فلا يرى بأسًا فيما يقدم عليه طالما تخدم أهواءه.

فليس صحيحًا أن الإنسان ليس باستطاعته تغيير سلوكياته السالبة وتصرفاته التعاملية والتحكم فى ذاته وضبط صمام عواطفه. فمن أنس فى نفسه ميلاً لممارسة سلوك غير أخلاقى اعتاده أو ضعف عن مقاومته وظن أن لن يقدر على تغييره فنقول له: التغيير مقدور عليه، فالأمر فى غاية البساطة ولا يعنى شطبها حالًا والتخلى عنها فورًا بالتأكيد لا، بل البساطة التى نعنيها أن الإمكانية متوفرة إذا حرك عواملها قناعة يصاحبها تصميم على التغيير. فقط يبدأ بالدخول من بوابتها الرئيسية وهو الاعتراف أن ثمة خطأ فى حياته ينبغى الإقلاع عنه، وهذا يعنى أن محرك القناعة اشتعلت شعلته ثم عليه أن يردفه بتصميم قوى لتتواصل شعلة القناعة ويكبر ريعها ويتولد معها شعور الأمل بالخلاص من عادته السيئة.

ذلك أن السلوكيات تلك لم تكن أصلاً فى تكوينه بل طارئة طرأت عليه بالاكتساب المتدرج، فهو قادرعلى الإحجام عنها واجتثاثها من قائمته إذا روَّض نفسه على حذفها

بقناعـة وتصميـم محكمًا عقله كابحًا عواطفه آيبًا عن سـوالبها ثائبًا إلى رشـده. فذلك من يستطيع تغيير سلوكه.

ولنا فى حديث المصطفى شاهد على ما نقول فى قوله – صلى الله عليه وسلم – عن أبى هريـرة رضى الله عنه قال: «**إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الْحِلْـمُ بِالتَّحَلُّمِ، وَمَنْ يَتَوَخَّ الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَوَقَّ الشَّـرَّ يُوقَهُ**». وشـاهدنا فى الحديث أن من يبتغ الخير فبإمكانه. ومن يتحرَّ الشر فبإمكانه. فهو فى موضع خيار إلى أىٍّ يسير. فالمسألة إذاً مسألة اختيار.

فمن أراد التغيير فعليه أن يجعله هدفًا مدعومًا بتصميم ثم بعزيمة على تحقيق الهدف. فمثابرة متواصلة.

ومن شواهد إمكانية تغيير السلوك السلبى الحديث الآخر: «**كُلُّ بَنِى آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ**» حديث شـريف يشـكل قاعدة عريضة فى الخطأ والعدول عنه بالتوبة منه وعدم الوقوع فيه مرة أخرى. فليس مستثنى من هذه القاعدة أى ابن أنثى مهما كان. فلا معصوم إلا من عصمه الله. والمطلوب أن يرى الإنسـان نفسـه من الداخل ويراجع قوائم سـلوكياته فيجعـل بينه وبينها حواجز منيعـة وودائع قوية وعلو همـة إلى سمو الدرجات والابتعاد عن مدارك صحبة السـوء ومثيرات الأهواء ومحركات الشهوات. فإنها مدعاة إلى الرجوع إلى ما كان فيه. وما أسوأ الرجوع إليه إن رجع ! وخلاصة القول أن السلوك السلبى ليس ثابتًا بل متحول والإقلاع عنه وارد .

بعـض الناس ينسـاق إلى طرق اللهـو بملهيات تبدو غير خطيرة فى نظره، يمارسـها بحـذر فى قلبه، يداخله قلق أنه يوشـك أن تـدور عليه دوائرها، فيتنبـه قبل أن تطوقه مسـيأتها ليستفيق من سهوته. ينتشل نفسـه قبل أن يبوء بوزرها فيبرأ من القلق وقد تعلم درس الحياة، معاهدًا نفسـه ألا يعود لمثلها إذ كادت أن تورده السـجن. لكن ما القول فى آخر مثله مارَسَ سـلوكًا سلبيًا سـتر الله عليه فلم ينكشف أمره ولم يمسه عقابه ولم تلمسه معرته. فعاود مزاولتها زهوًا مسـتخفًا ألا ينطبق عليه الوصف الشـعبى» ميت القلب «ماذا تعنى هذه العبارة؟.

تعنى أنه بليد الإحسـاس فاقد الإدراك، فبدل الإحساس بالذنب والإقلاع عنه استأنف سـالب سـلوكه فى حين كان المفـترض أن يتوجه إلى ربِّه شـاكرًا أن أنجـاه من فضيحة وسترعليه من وقيعة كادت تصيبه لولا لطف الله ليحيا قلبه مكفِّرًا عن قبيح فعاله. يعتبرها غلطة يتوب منها.

- فلكى يغير الإنسان نمط سلوكياته عليه مجاهدة نفسه بالصبر والعزيمة وتعزيز قناعة التغيير بالبعد عن مواطن الشبهات .
- رفض صوت الهوى واللهو والملذات والإصرار على كسب الوقت. فقد يفوته الوقت فلا يدرك إلا وقد وقع فيما لا يتوقعه.
- لا يخامر أحدًا شعور عدم القدرة على التغيير، فهو شعور هزيمة وتثبيط من إيحاء النفس الأمَّارة بالسوء بل يحزم أمره ويتكل على بارئه، وليعقد الثقة بالنفس. ورحم الله شاعر الحكمة أبى الطيب إذ قال من قبل:

عَلَى قَدْرِ أَهلِ العَزمِ تَأتِى العَزائِمُ وتَأتِى عَلَى قَدْرِ الكِرامِ المَكارِمُ

- يبيِّت نية صادقة وإيمانًا بفكرة التغيير وتوجهًا جازمًا عليه .
- لا تستشر الذين يحبُّون أن تشيع الفاحشة فيوهنوا همَّتك .
- اجعل الشعور بالذنب مرتكز فكرة التغيير وأردفها بقناعة مدعومة بصدق الإقلاع عنها.
- انسَ الماضى بمشاكله ولا تلتفت إلى ما فات لتبدأ حياتك من جديد. لتنهض من كبوتك فلكل جواد كبوة .
- أقبل على فكرة التغيير بانشراح.

إذاً من السهل تغيير السلوك السلبى:

نعم هناك إمكانية كبيرة لاستبداله وتحويله لسلوك إيجابى.

فمن درج على عمل رديء أو منحرف أو استدرجته النفس الأمَّارة بالسوء إلى ما يتعارض مع الدِّين والقوانين والأنظمة الضابطة لمنظومة الحياة العامة. ومن استحكمت عليه عادات سيئة لدرجة ممارستها بتلقائية باتت جزءًا من سلوكياته اليومية، وقد يتهيأ للبعض أن لا سبيل إلى الانفكاك منها والتخلى عنها، فلو فتشنا فى داخلنا سنجد ذلك مجرد شكوك ظنية لا ترقى لمستوى اليقين.

فالظن لا يغنى من الحق شيئًا، أى أن إمكانية التخلص متوفرة لمن أراد. فليس فى طبعه أصلًا بل عارض قابل للزوال إذا تبلورت فى صاحبها نية صادقة للتغير.

فطالما اكتسب السلوك السلبى بالتعود فهو قادر على التخلص منه بالتدرج، أى الرجوع إلى الأصل الذى كان عليه قبل أن يسلبه السلبى العارض ليبدل حسنًا بعد سوء على اعتبار أن السوء لن يطول به دوام. فلا بد أن يدخل مضايق موحشة ليندم فيها ويلام.

إن مجرد أن يتكوّن داخله هذا الشعور فهو خطوة على الطريق الصحيح للتغيير. ينتقل منهـا – بـإذن الله – من مربع السـلبية إلى مربـع الإيجابية عائدًا إلى أصـل فطرته. إن اتخاذ قرار كهذا سيمر حتمًا بعملية ضغط نفسى وانفعالات داخلية فيها دفع وشد يتذبذب الإنسـان بين شـد ما اعتاد ودفع ما يريد التخلص منه. فهو تحت ضغط خشـية ومتعة. يتردد صداها بين منطق العقل ومشاعر الميل، يحتار بينهما.

ـ هـذا القـرار الحاكم لابـد أن ينبع من قناعة معـزَّزة بعوامل مسـاندة بتفكير منطقى يستحضر عوامل تغيير السلوك السلبى إلى إيجابى وهى :

١ – اعتراف صاحب السلوك السلبى أن فى حياته خطيئة توشك أن توقعه فى مأزق يشقى به يجب الكف عنه .

٢ – تصميم على الترك بقناعة عزم وإرادة .

٣ – صبرعلى الضغوط النفسية ومناوءتها بقوة وحزم وطرد التفكير فيها .

٤ – الابتعاد عن مثيرات الشهوة وميولات الرغبة الجامحة.

٥ – ترويض النفس على الموجبات وتجنُّب المسيئات.

٦ – لا تضعف أمام المغريات وإن بدت جاذبة. إنها كطعم سـنارة الصيَّاد تغرى السـمكة لالتهامها فإذا هى واقعة فى خرجه .

٧ – كن يقظًا ولا تكن مغفلاً يسهل وقوعك فى خدعة، فالأشراك الخداعية يسمونها مصائد المغفلين. فلا تولِ صوب اتجاه واحد، فهناك جوانب معتمة قد لا تبدو واضحة، فمن يريد أن يستحثك على عمل آثم يتعمَّد حجبه عنك دقِّق النظر فيما حوله؛ لئلا تقع فى سمه، عليك أن تسـتدير دائرة كاملة لتكشف ما وراءه. صحيح أن الأصل فى الإنسان البراءة، لكن عالم اليوم جاوز هذه القاعدة طعنها فى مقتل، وإن كان ما زال فى الناس خير لكن الشر استشرى إلا ما رحم ربك .

٨ – المصابرة المتدرجة المتصلة غير المتقطعة .

٩ – النظر إلى النفس من الداخل والاسـتجابة لصوت الضمير الذى يسـتيقظ عند ارتكاب الآثام محركًا الشعور بالذنب .

١٠ – إياك والتفاعل مع الانفعالات والخواطر أو الرضوخ لموزعاتها.

١١ – اجعل من إرادتك قوة كبت العواطف العابثة .

١٢ – تفاعل مع ومضات النفس اللوامة التى تلومك إذا هممت بمعاودة السلوك السلبى.

١٣ – تجنَّب مجالس الشللية التى تقرِّبك مرة أخرى إلى مجالسها.

إذًا العمليـة صـراع بين إرادتين: إرادة يقودها العقل وأخرى تقودها مشـاعر العاطفة، نهاية المطاف ينتصر صوت الإيجابية على صوت السـلبية، بعزم ذلك الذى اكتشـف سوء فعال هوى النفس ومقت سلوكه فعزم على الرجوع إلى رشده.

وهذا يعنى استيقاظ الضمير؛ لأن لديه قناعة بسوء ما هو فيه فزع للبرىء منه، متأسيًا بالحديث السـالف ذكره عن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم قال: «**إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَـا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّـمِ، وَمَنْ يَتَوَخَّ الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَوَقَّ الشَّـرَّ يُوقَهُ**»، نبراس إضاءة لباغى الخير ومتقى الشر.

وقد أردفناه بحديث نبوى آخر: حديث يشـكل قاعدة عريضة فى مسألة العدول عن الخطأ، فالمطلوب أن يحُسـب حسـاباته ويراجع قائمة سـلوكياته السـالبة بالاحتكام إلى منطق العقل.

ونتوج ما ذهبنا إليه بقول الحق تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٣٥].

والخلاصة أن من درج على شـأن شاذ أو سلوك نشاز أو فعل منكر فبمقدوره الكف عنه والتوبـة إلى الله مـن معاودتـه ولم يصرّ عليه، فالأمر بيده حتـى وإن كان من قبيل أعمال لا تصل إلى مرتبة المنكر أولا تتصف بصفة الإجرام، فليعلم أن الاسـتمرار عليها يعنى أنها مرشحة إلى الأسوأ، فقط الأمر يحتاج إلى مبادرة قوية للتخلص من السلوكيات السالبة قبل أن تتمكن من صاحبها، فليس مستحيلاً الإقلاع عنها.

وكم سمعنا عن وقائع طرقت مسامعنا! ألم تسمع عن شخص كان متحمسًا لفكرة يدافع عنها بشـدة ثم فجأة تجده يعدل عنها بعد أن اكتشـف باطلها وسوء مردودها فغيَّر فكرته مدركًا سوءتها؟ مثل هذا ربما قد سمعته من قريب أو صديق أو من تعاشر.

أليـس هـذا دليلًا على أن الإنسـان قادر بإذن الله على أن يغير سـلوكه ولم يصر عليه مستشعرًا عدم سلامة نهجه، فيعمل على انتهاج أسلوب التغيير ومقاومة المثيرات النزوية؛ لأن السـلوك السـلبى نزاع إلى مثيرات توقظه ؟ فمن تكوَّنت لديه قناعة اسـتبدال السـيئ بالحسن فهو بعون الله قادر. من قاعدة:

أن من أسلم نفسه لهواها فقد هوى ومن ضبطها وكبح جماحها فقد نجا. تلك مقومات تغيير السلوك السلبى. هى حالة مصالحة مع النفس. وإليك هذه التجربة التى خاض مخاضها أحد الذين سلكوا مسلكًا سلبيًا ثم تاب إلى رشده:

يقول: جاء إليه صديق غضبان مستاء يكاد يتفطر من الغيظ، سأله صاحبه: ما لك يا رجل ؟ يبدو عليك الجزع ويعلوك هم ويغمرك غم. فقال: يا صحابى. إنى أحمل فى داخلى وحشًا أبغضه وأكره أن يصاحبنى. لكنه يتلبسنى بين آونة وأخرى ويكرهنى على أن أطاوعه يخرجنى من طورى السليم إلى طور قبيح .

قال: أفصح .

أطلق تنهيدة وزفر زفرة وهو يجلس حتى استوى قاعدًا، فقال: هل تصدِّق أننى ألوم نفسى وأمقتها.

قلت: كيف هذا؟

أجاب: إن فى داخلى نفسا شريرة. تطرح على فكرة تلو الفكرة وتعزم على إلا أن أنفذها، ويستهوينى فعلها بما تزينه لى من الشهوات والمحرمات والممنوعات وما يميله علىَّ هواها حتى إذا انكببت عليها مطاوعًا إياها. تملكنى بعدها شعور بندم غريب يعصر قلبى وحسرة تملأ صدرى على ما أقدمت عليه وكأننى فى حالة خصام تنشب بينى وبين نفسى. فأعقد العزم على إلا أعود مرة أخرى. وما يكون إلا قليل من الوقت فإذا بفكرة أخرى تلوح لى تسيطرعلى ذهنى، تجذبنى مزيناتها وجاذبية فتنتها فأقع كما فى المرة الأولى، فإذا أشبعت نزواتى صرت نادمًا وغير راض على ما أنا فيه، لذلك فأنا ألوم نفسى وأعتبرها نفسًا شريرة ولكن مشكلتى أنها ضمن تركيبتى وعضو منى. سلطانها علىَّ قوى وعتوها علىَّ شديد.

قلت: وماذا بعد؟ ما المطلوب منى كى أساعدك به طالما أنك كاره مطاوع؟

قال: هذا سر عذابى من نفسى. أريد لو مرة أتمرد عليها كما هو حالها تتمرد على.

قلت: هل أنت عازم وعلى موقفك صارم؟

قال: هذا ما أبغى لكن لا أجد إلى ذلك سبيلًا. فكلما عزمت انهار عزمى أمام بهرجتها وجاذبية لذائذها وتسويق مشوقاتها. أجدنى أنهارأمامها لا أقدرعلى مقاومتها.

قلت له: هل لازلت جازمًا؟

قال: نعم. وبالله الكريم.

قلت: صبرًا. فقمت وتناولت مصحفًا. وقلت: خذ.

قال: ما أعمل؟

قلت: أستحلفك بالله هل أنت عازم على دحر نفسك ؟ وهل أنت صادق فى ندمك؟

قال: نعم. والله.

قلت: افتح سورة النازعات. واقرأ الآيات: الآية: رقم (٣٧). ثم أردفها بما وراءها فقرأ: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [سورة النازعات: الآيات ٣٧ - ٤١].

قلت: يا أخى، حالتك تحتاج إلى خبير نفسى ولكن بقدر ما أستطيع سوف أشخّص حالتك.

يا عزيزى، أنت واقع تحت مؤثرين:

- أحدهما: شعور بسعادة وهمية عند مقارفة المآثم تجرُّك إليها النفس الأمَّارة بالسوء.
- ثانيهما: شعور بندم على اقتراف المعاصى يفعله تأنيب الضمير. لكن هذا التأنيب قصير مداه لا يكاد يصمد أمام المغريات، وتظل تراوح بين معصية وندم ثم ما تلبث أن تعود إلى مقارفة أخرى، ثم عودة إلى الندم من جديد وكأنك تدور فى حلقة مفرغة.

فى أثناء الحوار يقول: نظرت إليه وكأنى أقرؤ ه من الداخل فألمس صدق ما يقول.

فقلت: يا عزيزى، الحل فيما قرأت من آيات ربك، كرر قراءتها واستيقن مدلولها فستجد أن حالتك فيها مشخصة والمعالجة فيها موصوفة. فمن طغت عليه أهواء ولم يستطع كبحها تمادى هاويًا هواياتها، هما فعل ونتيجة. فمن طغت عليه نفسه ونزلت به منازل الأهواء والمعاصى. فالنتيجة عقاب وندم وحسرة وفى الآخرة عذاب جهنم. وأما من كبح جماحها ومسك زمامها، فالنتيجة راحة بال وأمان نفسى. فأيُّ الحالتين تريد ؟ فكّر مليًا وسوف أراك غدًا.

وفى الغد يقول: هاتفته تلفونيًا وأخبرته أن يأتى إليّ أو آتيه، فأجابه أنه جاهز لئن يأتى إلى بيتى.

يقول: استقبلته بابتسامة وترحيب حار. تأملت قسمات ملامحه محاولاً تفسير بعض التعابير على وجهه، وخلال الجلسة دخلنا فى الموضوع مباشرة فبادءته مذكرًا. بالأمس طلبت منك أن تفكر فيما طرحت عليك.

قال: نعم .

قلت: على ماذا استقريت؟

قال: بالتأكيد استقريت على اختيار طريق الاستقامة. مع أن نفسى لا زالت مستهامة.

قلت: حسنًا. سأعطيك المصحف مرة ثانية، وسأقرأ عليك هذه الآية: يقول تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٣٦] هذه الآية تصف حالتك.

قال: كيف؟

قلت: يبدو أنك خلدت إلى أهوائك حتى أشغلتك عن السليم والصحيح وجعلتك توَّاقًا إلى الملذات ورانت على قلبك وزينت فى فؤادك حب الشهوات، لكن يبدو لى أن فى داخلك بصيصًا من شعاع الحق وشيئًا من نور البصيرة ينبض بنبضات خفية تحسسك باللوم، فهو شعور خافت لا زال فيك منه رادع قياسًا بشعورالملذات الذى أسلم نفسك لهواها وغشاك هواها، الله يريد بك خيرًا أن تتحرك النفس اللوامة ترسل إليك إشارات الندم، فقط اكسر الحاجز واستقوِ بالله لننتصر على شيطانها وردد: لن أعود – لا – لا لا – بصوت عالٍ عندها ستتجاوب قواك النفسية والحسية لتساعدك فى الانتصار على نفسك. جربها مرة واحدة وسوف تتلوها خطوات قبل أن يطبع الله على قلبك بالمعاصى.

سكت الرجل وأوجم صامتًا ثم دمعت عيناه وقال: لا، لا، لا! قالها ثلاثًا وعاهد الله على عدم العودة ومقت حب الشهوات، فشرح الله قلبه للهدى.

يقول لى: هل تعلم أنه الآن فى كوكبة الملتزمين التزامًا صادقًا وناصحًا أمينًا لمن كان يدور معهم فى دوائر الهوى وتوقع أن يهدى الله به من كان على شاكلته. فمغالبة النفس هو مربط الفرس فأنت الذى تملك الحل وتحسم القضية.

الحل فى مجاهدة النفس والحسم عند خوض لعبة التحدى معها.

مجاهدة النفس:

تعتبر مجاهدة النفس عاملاً مهماً من عوامل التحصين بعد الله من الوقوع فى شباك الانحراف، وهى مفتاح المصابرة على هوى النفس ومنعها من الوقوع فى براثن الشهوات

والبعد بها عن سلوكيات السوء، لائذًا بقيم الدِّين ومصوغات الأخلاق. عاملاً بعمل الاستقامة ونهج القوامة يقاوم مستذلات الإغواء. لو تغريه زلة أو تستدرجه هفوة يقاومها. إذا راودته ميلة أو رفرفت حوله زيغة أو ناوشته نزوة أو راغبته رغبة تقرِّبه من الشر أو ما يجرِّه مجرات مريديها يعلم أنها من تسويل نفسه الأمارة بالسوء إن لم يقاومها طغت وإن لم يجاهدها استفحلت، فالعاقل من يجعل من نفسه قوة دفع ذاتى لدفع أدران المسولات؛ كى لا ننزله منازل غير مأمونة أو تصرفات مريبة أو ما يعرضه لما لا يحمد عقباه أو ضعف أمام عارض إغراء. تلك المقبلات وما حولها يضعها الإنسان فى حسابه، يغالبها ليقصيها من بؤرة فكرة يناهضها بقوة أداة دفعه الذاتى التى يفعلها تفعيلاً غالبًا معززًا بشعور إيمانى قوى، وهى أولى مراتب المجاهدة لتوليد حصانة ذاتية بالتفتيش فى ثناياها بين فترة وأخرى لردم ثغار النزو والنغز.

فكما أن بدن الإنسان محتاج إلى عمل فحص طبى دورى؛ للكشف عما يعتريه من أوبئة ليحصنه ضد الأمراض فكذلك النفس هى الأخرى معرضة لعوارض الضعف والميل إلى اللهو، مما يعنى أن يتعهدها بالفحص الدورى؛ كى لا تتوالى خباءات النزوع إلى الأهواء؛ ليناوئها بالمجاهدة معتمدًا على الله خالقه فى مجاهدتها والاصطبار عليها؛ ليقطع دابر النفس الأمَّارة بالسوء وسد منافذها. هنا تكمن لعبة التحدى.

فلعبة التحدى هى أن تجتث كلمة مستحيل من جذورها وتلغيها من قاموس التجارب، فلا مستحيل إلا ما كان مستحيلا أصلاً. وقديمًا قالوا: المستحيلات ثلاثة:

الغول ـ العنقاء – الخل الوفى – لا رابع لها.

لعبة التحدى أيضًا أن تحذف كلمة لا أستطيع من معجم المحاولات فأنت بقدرة الله تستطيع، ثم تستطيع، ثم تستطيع. وأنت – بإذن الله – قادر، ثم قادر، ثم قادر.

فلماذا تهوِّن من إمكاناتك وتؤقزم قدراتك وتجعل كلمة مستحيل أو لا أستطيع عنوانك؟

فكم من قادر سيطرت عليه كلمة مستحيل أفقدته قدراته وشلت طاقته وأعجزته عن أداءات فاعلة! وكم من طالب استكان لكلمة مستحيل فخاب وتبلد! كم وكم! كثيرة هى نماذج الحياة وصور الفشل لكن الفشل ليس قدرنا أساسًا. فلماذا نجعله قسمة حياتنا؟ علينا نفض غبار الاستكانة والاستعانة بمن بيده الإعانة والقدرة والتمكين، فستجده معينك، إنه رب العاجزين والقادرين والناجحين والفاشلين وكل من على كوكب الأرض أجمعين.

صحيح أن النفس تهوى والقلب يميل والطبع مجبول على الخير والشـر. ومهما كانت عوامل الشر فإن عوامل الخير والصلاح لا مقطوعة ولا معدومة.

ومعلوم أن الفؤاد يخفق إلى الرغبات والجسد يهفو إلى الملذات والفكر يشطح بالنزغات. يصوغ من أجلها نظريات ويبررها بفلسـفات. لكـن الأمور لا تأخذ على علاتها دون قيود ولا على إطلاقها دون ضوابط. فلا بأس أن يأخذ منها ما طاب مذاقه ولذ شرابه فى حدود شـرع الله ومعايير القيم دون تعطيل شـوكة الميزان التى تضع الأمور فى نصابها. لا تميل بها خروجًا عن حدود أو تجاوزات مشروعة وتعدى الخطوط المرسومة؛ كى لا يطلق العنان للانغماس فى الملاهى المبهرة. تسـتهويه لذائذها. تجذبه بالهوينا فلا يجد نفسـه إلا وقد قطعـت به مشـوارًا أقرب إلى الآثام. لتذهب به خطـوة تلو خطوة فلا يفتح عينيه إلا بعد حاجز القضبان. ولكى نوضح المسألة:

ما من إنسـان إلا وقد سمع عن واقعة وقع فيها شـخص يعرفه أو شـخص لا يعرفه أو قرأ قصة عمن هوت بهم أقدامهم فاستودعتهم زنازين السجون. فكيف لا يستعرض شريط ذكرياته قبل أن يقع ضحية ملتهاه ويبحر فى حرام متناسـيًا ما جرى لغيره وهو يعلم أن مآل مثل هذه الأفعال إلى عقاب والعقاب مكانه السـجن ؟ أم غلبت عليهم شـقوتهم وازدان فى أعينهم لهوهم وكبر فى نظرهم ما ظنوا أنه يسعدهم سعادة موهومة ثمنها سيدفعه غاليًا وكأنه لسان حاله يقول كما قال فى رباعية الخيام لأم كلثوم:

أنعـم مـن الحاضـر لذاتـه فليس من طبع الليالى الأمان

متصورًا أن الأمور وفق مراده تسـير، ناسـيًا أن هناك قوانين وأنظمة تحكم المسارات؟ فالدنيا مضبوطة بضوابط ومحفوفة بروادع، احترامها لازم واعتبارها مفروض. فإن ضلع فى خطأ ولم يحاسـب به فليتوقع أن يصيبه ما أصاب غيره من حسـاب. لو فطن قليلاً وتأمَّل واقع غيره لتورَّع من الغلط.

التفكير فى الحرف لو:

لو: هى أداة اسـتدراك يسـتدرك بها المُقدِم على ممارسـة محرَّمة قبل أن يسترسل فى التفكـير فيها. فهـى على موقعين من الحدث: ما قبله وما بعـده. أما ما قبله فهى تفتح عينـه على أسـئلة لم تكن تخطر علـى باله. فتدله إلى ما يردعه مـن التمادى فيها. كأن

يقول: لو تعثرت، لو فشلت، لو قبض على، لو عثر على متلبِّسًا بجرم أو بممارسة خاطئة. يأتيه الجواب بسؤال معاكس: ماذا سيكون مصيرى؟ وما عقوبتى؟ وما موقفى؟ ثم تتسلسل الأسئلة كأنها ترسم له سيناريو النتيجة المشؤومة. فيدرك أنه على خطأ عسى أن تحفّزه للإقلاع عن الشروع لطلبه.

أما بعد الحدث وقد وقع فى القبض أو أوشك فيقول: لو أحكمت خطتى وهيأت ظروف عملتى لما وقعت، ولو عملت احتياطات لما وقعت، لو تماسكت لنجوت، لو حسبت حسبتى لما فشلت. وهكذا يشحن بشحنة أسئلة، وهنا تكون لو تفتح عمل الشيطان كما جاء فى الحديث، فعمل الشيطان أن يهوِّن عليه النتائج ويصورها له أن هناك إمكانية أخرى لو تدبر أمره، يوحى له كمن يقول لصاحبه: (لا يهمك خيرها فى غيرها)، ثم تتوالى عليه لو بعد لو التى تزيِّن له عمله وتدفع به إلى محاولة أخرى أكثر حماسًا من الأولى.

هنا تبرز أهمية لو فيما قبل الحدث مرجئة ومرجعة وما بعده مشجعة ودافعة وهو الوجه السلبى الذى يلمح إليه الحديث.

مع الأسف فإن كثيرًا من الذين ينوون الشر يستخدمون «لو» على وجهها السلبى. يقول: «لو» أحكمت خطى وتجنبت كذا وكذا فلن يصيبنى مكروه، ولو بادرت على حين غفلة فلن يرانى أحد أو يشعر بى أحد. ثم تتوالى لو بعد لو حتى يتراءى له أنه قد أحكم خطته ورسم دربه، وما درى أن لو ربما تطيح به قبل منتصف الطريق بحكم أنه لن يستطيع استيفاء كل الدقائق ويشرع فى التنفيذ معتمدًا على جاهزية وسائله مستبعدًا إمكانية الإخفاق، فتكون (لو) قد نالت موقعًا متقدِّمًا تدفع به قدمًا إلى الأمام.

وهنا تقوم الحجة على العاقل الراشد الذى زينه الله بالعقل وشفاه من مرض الزيغ. وما بال مثل هذا وقد وهبه الله أهلية التعقل ومنحه طاقة التفكر يسلِّم أمره لعواطفه؟! لا يتركن للعقل مدخلًا؛ كى لا يلقى بنفسه مخدوعًا بلهفة العواطف.

نعم لهفة عاطفة، ونعم لبعض رغبة لكن ليس لها أن تكون حاكمة، وليس لها أن تتحرر من عقالها، منطلق عنانها دون وازع من دِين أو ضابط، من خلق أو استدراك، من قياس نتائج وعبر، مخابر ليتبصر بنفسه البصائر لصد لفح الرديئة.

كم من واحد ينسى نفسه فتصبو به صبوات جانحة تأمره فيطيع وتسيِّره فيسير! حتى تطبع عليه طبيعتها وتحكم قبضتها وتكبله شهواتها، توقعه فى مصائد الهوج وطرق العرج، وكلما انساق معها انساقت إليه، تعصف به الأهواء وتجرفه إلى ما لا يحمد عقباه،

فتكون عاقبة أمره وبلية، مداره شنيع، مستقبل أيامه مشين. هو من استحب الهوى وعاقر الخطيئة، كلما طق طاق الهوى طق فى داخله وجدان الجوى. حتى إذا ارتد عليه مرتد الهوى واقتيد إلى السجن بأفعاله الظلامية. ضرب صدره وفغر فاه وجحظت عيناه مفجوعًا مبهورًا، يتمتم بأسف: يا ليتنى تراجعت إلى الوراء خطوة بدل أن تقدمت إلى الأمام خطوة زلت بى إلى نحو السجن وبئس المقام!

وكمثال لهذا إليك هذه الحادثة :

يروى شخص على لسان آخر يعرفه، قابله بعد أن قضى مدة ستة أشهر فى السجن. قال: عندما هممت بزلة، بسطو على محل تجارى، كنت قد أعددت عدتى لطريقة الدخول. ولم أحسب مسار الخروج فاستنسخت المفتاح الرئيسى (master key) بمعاونة أحد العاملين.

فبعد أن خلا المتجر وأقفل عماله أبوابه وأطفؤوا الأنوار ولم أعلم أن الخزانة تنقل إلى غرفة خاصة محكمة، إضافة إلى أن الظلمة الحالكة انعدمت فيها الرؤية ولم أعد أستطيع معرفة طريقى إلى الخزنة الذى حددته، كنت أسير فى الظلمة تائهًا بين البضائع، بذلت جهدًا مضنيًا للوصول إلى الهدف، وبعد جهد جهيد وصلت إلى مكان الخزنة. فلم أجدها فى مكانها وكان الوقت يمضى ويتملكنى الخوف، كلما أزف فأرتبك ويستحوذ على الهلع. ولم أعد أبحث إلا عن المخرج الذى لم أرسم طريقه لأنفذ بجلدى قبل طلوع الصبح بعد أن قضيت ساعات طوالاً بدون جدوى، حتى استولى عليَّ اليأس من الوصول إلى الخزنة بل من الخروج سالمًا، فحاولت الانزواء فى زاوية بعيدة من المتجر داخل غرفة الملابس التى يقيس فيها الزبائن مشترياتهم، وكنت قابعًا فيها أغفو تارة وأنتبه تارة حتى سمعت حركة عمال البناء حول المتجر، فعرفت أن النهار قد طلع ودبت الحياة فى الطرقات.

فسأله صاحبه: وماذا عملت؟

قال: لا شىء. ظللت فى غرفة الملابس حتى فتح المتجر ودخل اثنان من عمال النظافة فرأونى وأنا منهك، فاندهشوا ! سألونى منذ متى وأنت هنا وبدأت عملية القبض وإبلاغ مخفر الشرطة وتسلسلت إجراءات قبضى حتى أودعونى السجن. فهل هذا الشخص تفكر فى «لو»، قائلاً: لو قفل المتجر هل سيكون هناك ضوء ؟ وهل الخزنة تبقى فى مكانها؟ ثم

كيف سـأخرج ؟ وهل يمكن فتح الخزانة بسـهولة ؟ فلو استعرض «لو» لربما كانت لو أداة مراجعة لفعل أصابه سوؤه.

فرضية سؤال من وحى الحكمة:

الحكمة تقول: من هانت عليه نفسـه هانت على غيره. فمن انكبَّ على المعاصى مصرًّا عليها لا يبالى بما وراءها، متمردًا على منظومات الحياة، لاهيًا فى غيِّه، متناسيًا أن مردها مرٌّ وحسـابها عسـير، متوهِّمًا سـعادتها، لا يدرى أنها لحظات من السعادة ستتحول إلى لسعات من التعاسة وشعور بالكآبة والنحاسة.

فمـن تعامى وتمادى فقد ردم مرابض الإحسـاس بمقدرات دينيـة اجتماعية أخلاقية، فلا يعيرها اعتبارًا فهو مستهتر وهنا تبرز فرضية سؤال استفهامى:

هل ثمة من يفرِّط فى نفسه؟ الجواب: نعم.

المتهاون بالقيم غير المتعظ بالعبر المتهاون بالذمم المستهين بالمروءات والشيم المنغمس فى دنيا الأهواء والأحلام. فمن كان هواه قائده فبئس المآل! فقد باع نفسه بثمن بخس لا يساوى قيمـة الهوان الذى ينتظـره. لكن الوضع يحتمل المراجعة فليس ذلـك نهاية العالم. عاهد نفسـك على أن تعود إلى درب السـلامة وانتكس راجعًا لا تفرط أكثر مما فرطت؛ حتى لا تنطبق عليك القاعدة الحقوقية: المفرط أولى بالخسارة.

- ما من إنسـان إلا ويعلم أن الحياة فانية ومداها محدود. فلماذا تضيِّع بعض عمرك هدرًا باللهو؛ لتقضى باقيه فى السجن ؟
- قاوم ذاتك وقوِّ دفاعاتك ضد مثيرات الرغبات ومزاين الأهواء.
- من فرط بإرادته يصلح ما فرط أيضًا بإرادته.
- جـدد صداقاتـك واختر الطيبين أهل الـبراءة والطهر وجالس المخبتـين الوجلة قلوبهم لذكر الله.

ولا تمشِ مع الهمَّاز اللمَّاز المفرط الذى لا يبالى بحلال ولا حرام.

انظر إلى مسـتقبلك واجعله أمام ناظريك وضع مصلحة القادم من أيامك فوق كل الأهواء واسـتعصم بخالقك واذكر ربك إذا نسيت واسـتغفره إذا غفلت، فإن دعتك نفسك للتفريط اسـأل نفسـك بصوت عالٍ: هل ما أفعله صائب أم غوى جميل أم قبيح؟ سـؤالك يضعك

على محك الاختبار لإخراجه إلى العلن؛ لتتداعى له حواسك الظاهرة تسمعه أذناك ويعقله عقلك ويعيه قلبك، عندها سوف تنتابك وخزة ضمير تتسرب تلقائيًا تنبه مكامن الخير فيك، وإن كررت السؤال بصوتك المسموع فسوف تتفاعل معه جوارحك الحسية الباطنة، ستقف بلك فى نقطة وسط ومفترق طرق بين ساعى اللهو وداعى الإعراض. يشدك الساعى إلى الإقدام، ويشدك الداعى إلى الإحجام، وبين الحالين وقفة: فإما إرادة قوية تنهاك وتشدك إلى الخلف يصيبك خيرها فتسلم، وإما عاطفة قوية تشدُّك إلى الإقدام يصيبك سوء عواقبها تخطو بها خطوة تلو أخرى إلى السجن.

فحسن الاختيار بإعمال العقل؛ للتمييز بين حلو و مرٍّ، يقف الإنسان للتفريق بين ما يجلب له خيرًا أو يدفع عنه شرًّا. فى هذا المقام يقول الشيخ الشعراوى – رحمه الله – فى أحاديثه ما معناه: إن الإنسان له عقل يختار به خيره من شره، بينما الحيوان ليس له عقل ولا إرادة اختيار، وبذلك فهو محكوم بغريزة ميكانيكية مجبر عليها لا خيار له فيها، وأما الإنسان فمحكوم بغرائز مضبوطة بنقاط احتباس؛ كى لا يطلقها على عنانها بل بيده أداة ضبطها، يتحكم فيها؛ كى لا تنفلت ويضطرب بها حاله .

ويستطرد مقررًا قاعدة تحسبيَّه، يخاطب بها من يعتزم القيام بعمل مخالف. فيقول: وأنت حين تفكِّر فى عمل شيء ستحتاج إلى أمرين: أن تنظر فى معطيات إقباله ومعطيات إدباره، فالنظر إلى ما وراء ما تعمل ومعطياته سوف تستنبط قَطْعًا خلفية سوئه، فإن يسار إلى كتمه ويتغاضى عنه يستولى عليه الاستحواذ والهوى إلا أنه سيبقى يلح عليه شيء من اللوم، يطل بين فترة وأخرى يرسل إشارات إنذار، وهذا يعنى أن العملية تسير بتسلسل منطقى بدءًا من التفكير لمن له قلب حى ثم التدبر فى مظالم قد يجرها لغيره. فمن فكَّر وتدبَّر فقد أدرك القضية وسوء عاقبتها، فإن استمر فى طريق غيه فإن قلبه ميت غلبت عليه شقوته فينال به عقابه حتمًا إلى السجن، ولن يأتى ذلك من فراغ إلا بتدبر وتأمل وتفكر واستدراك.

وقفات تنبيه

كل من درج على ممارسة سلوك سلبى يحيده عن جادة الطريق، يهيئ مدخله إلى ميادين الإجرام، تدفعه إليها إغراءات ومزينات، ينقاد إليها مع هبات الهوى غافلاً أو مستسهلاً بعض الصغائر محاكيًا أو مقلدًا وربما على غير قصد أو دراية. مثل هذا يحتاج إلى من ينبهه قبل أن تستوى عنده الكبيرة كالصغيرة، وقبل أن تتمكن فيه الصغيرة لتصبح كبيرة وسنورد بعض الوقفات؛ لعلها تردع من يطلع عليها فيتوقف عن ممارسات ربما هو نفسه غير مقتنع بها أو غير مدرك خطرها.

الوقفة الأولى :

فى الأثر قول سائد: الرجوع إلى الحق فضيلة، فمن زلت به قدمه إلى فعل غواية أو زلة آثمة قد تسوؤه تبعاتها إذا انكشف أمره ووقع فى سلسلة المساءلة وما تبعها من عقاب، فإن شعر بشىء من الخشية فذلك مؤشر يقول له بصمت: إنه فى الطريق الخاطئ، فإن أدرك معنى المؤشر مستحضرًا سوء النتيجة سيرجع إلى عقله يرفس الشيطان برجله. فالرجوع إلى الحق فضيلة.

الوقفة الثانية :

يقول تعالى: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة القيامة: الآية ١٤].

فمن راودته فكرة نازقة أو همَّ بزلة فهو يزجُّ نفسه بنفسه فى طريقها غير مبالٍ بما سيكون عليه حاله إذا وقع فى بؤسها. فقد قصرت رؤيته عن خطأ ما هو فيه فلاذ بهواه يتحمَّل جريرته؛ لأنه لم يكن بصيرًا على نفسه. فمن أقدم على الحسنى فله الحسنى وزيادة. وعلى المرء أن يتبصَّر بنفسه قبل أن يتبصَّر به غيره. فكل نفس على نفسها بصيرة توجيه الحكيم العليم .

الوقفة الثالثة: التوازن الروحى:

الإنسان ممزوج من مكونين: جسد وروح .

فالمكون الأول: الجسد مخلوق من طين الأرض. قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ ﴾ سورة الصافات: الآية ١١] هو الطين المكوَّن من عناصرالتربة التى تمثل مطالب الجسد المادية والرغبوية.

والمكون الثانى: الروح. يقول تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [سورة ص: الآية ٧٢] وهى ما تمثل الفطرة والبراءة والطهارة والنقاء وصفاء الجوهر. والشقان موثوقان بتوازن محكم.

فمن يتعهد التوازن بذكر الله وتلاوة ذكره الحكيم وتدبر آياته وأحكامه واتباع هدى نبيه – صلى الله عليه وسلم – وإرشاداته ومداومة الأذكار الراتبة والمشى إلى المساجد ومجالسة أهل الذكر، وترطيب قلبه ولسانه بذكر الله. فذلك صاحب فؤاد عامر ولسان ذاكر وقلب رطب، انغرست بذراته بتقوى الله، ينهى نفسه عن هواها إذا ما طاف به طائف نزوة أو نازعته نفسه على عمل شائن، يقاومها قبل أن تطوف عليه طوائفها. فذاك راعى أرضية، زرعها إيمانٌ، ثمارها تقوى، حصادها وجل من الوقوع فيها، فذلك الوازع الروحى تغذيه خشية، وازعها شكر النعمة. أما الذى لا يتعهدها بذكر الله وهدى رسوله عليه الصلاة والسلام فقد ساير عوامل الشر، جفت خصوبة أرضه، انحسر لسانه عن الذكر، انصرف فؤاده إلى اللهو، تعلقت نفسه بالمنكرات. فماذا يجنى سوى الخبث والخبائث؟!

الوقفة الرابعة :المنظومات المحترمة:

احترام القوانين والأنظمة المعتبرة. فمن تنزعه نفسه وتلح عليه نداءات شهواته، ومن يستخف بالتشريع والأنظمة والقوانين ويعمل عملاً متعارضاً معها، فهو مقبل على مجازفة يلام عليها ويلقى حسابه؛ لقاء إخلاله بها وعدم التزامه بحدودها. مثل هذا يلقى بنفسه فى دائرة المآخذ، فمن يقف وقفة مراجعة مع ذاته ويحسب حساباته مستذكرًا من كان قبله ممن استهانوا بها فكانوا بها مؤاخذين عندها، سيدرس وضعه ويستلهم رشده فى وقفة تأمل قبل أن يكون ضحية سجنها.

الوقفة الخامسة:

لنتذكر دائمًا القول المأثور: (قلب المؤمن دليله).

ونتذكر قول شوقى:

فمن تقوده نفسه إلى غلط أو تسوِّل له أمرًا سيئًا. ومن يفكر فى خرجة مخالفة أو يجنح جنحة، فيستيقظ ضميره فى لحظة من لحظات التأمل؛ لأن الصح يرد على الخاطر كما يرد الخطأ عليه أن لا يهمل تلك اللحظة ولا يكبتها. فهى دليله إلى التفكير مجددًا لتصويب مساره.

الوقفة السادسة: الدرس المستفاد:

إذا وقع إنسان فى ذنب فلا يجب أن يكون مدعاة للاستزادة للوقوع فى ذنب تالٍ له. فبعض الناس إذا وقع فى شيء من ذلك ونجح فى إخفائه قد يعتبرها شطارة وحرفية ذكية تدفعه إلى مقارفة معصية أخرى، بينما الواجب أن يقف عند الذنب ويعتبره غلطة إنسان ليس معصومًا ليكف عنها أسفًا نادمًا، ولنأخذ مثالاً من الواقع: هب أن شخصًا يعانى من ضيق ذات اليد لا يلوى على شيء من حطام الدنيا، دخله لا يكاد يغطى احتياجاته وفى لحظة راودته وساوس السطو أو السرقة. فسطا فعلاً أو سرق. فهو بكل المقاييس مرتكب جريمة. مثل هؤلاء على حالين: أحدهم إذا نجح فى عملية كهذه ولم يكشف أمره تاب نادمًا أسفًا راجعًا إلى ربه معترفًا بذنبه يستغفره معاهدًا إلا يعود لمثلها. شاكرًا الله أن ستر عليه ولم يكشفه أمام خلقه وأنجاه من العقاب مستفيدًا من الدرس .

وآخر مثله يستعذب العملية؛ لأنها تدر عليه مالاً وافرًا بأقل جهد ودون عناء، يتحمس لها يرجعها إلى خبرته ومهارته وإحكام خطته وذكائه، اعتبرها تجربة اكتسب منها خبرة يجب تطويرها مما يحفزه إلى القيام بأخرى، معتمدًا على تجربته الأولى، مستبعدًا أن يكون بين ساعة وأخرى بين فكى القيد إن قريبًا أو بعيدًا، سيقع فى يد العدالة وسيقبض عليه منخدعًا بزهو نفسه ولم يستفد من الدرس .

الوقفة السابعة: احذر تسلم!

ألم يطرق سمعك أو صادفت مشهدًا وقرأت عن واقعة إنسان قد وقع فى ورطة من حيث لا يدرى، وتلبس بجريمة لا ناقة له فيها ولا جمل مخدوعًا بخدعة أو مغشوشًا بغشيشة؟ وقع فى مشكلة أو انجرف وراءها أو دخل مداخل لا يحسن الخروج منها أو تعرض لمكر

أو تعامل مع مفسد على أنه مصلح، ضلل عليه حقائق وأظهر له محاسن واستبطن له بطائن يجهل طبيعتها تلبس بها استغل سذاجة وسوء غفلة واستحضر من الأسباب والوقائع والقصص ما تعلم واستعلم عما لا تعلم. المطلوب من الإنسان الحذر. فالحذر واجب؛ لأن المكر موجود والخداع وارد والتدليس ظاهر والتلبيس واقع، فلا تقع لقمة سائغة لمن يتربص بالناس الدوائر؛ لتحقيق مصالح على حسابهم يجعلون منهم جسرًا يرد منه إلى مكاسبه. احفظ لنفسك خط رجعة تلوذ به من المخادعة، واحذر فمن حذر سلم.

عالم الإجرام

مفهوم عام :

هو نتاج طبيعى للمنكرات وذيول السيئات وصدى الخطيئات ومأوى الآثام والمعصيات وسالب السلوكات. مسلك موهوم وطريق محموم بحميات موبوءة تفضى بمن سلك طريقها إلى عالم الإجرام.

توصيف الإجرام :

لن نكرر التوصيفات العلمية كما يراها علم الإجرام، فقد فاضت وأوفت تحليلًا وتوصيفًا إلا إننا سنخرج من الوجه العلمى إلى الوجه الوصفى للمتورطين به أو الموشكين على الوقوع فيه، من واقع الحال كما تراه مرآة الجانب الحركى إن جاز التعبير، فهو خروج عن المعايير المجتمعية أو تمرُّد على الأحكام الشرعية والقانونية، وانتهاك الحرمات والأخلاقيات المعتبرة، أو الإخلال بالأنظمة والمرعيات المحترمة، والعبث بالمقدرات الوطنية، أعمال يجرِّمها الدِّين وتحرِّمها القوانين وتحظرها الأنظمة .

إن تنظر إليها من الوجهة الواقعية فستجدها منافية للواقع الطبيعى، منطقها تجاوز نقاط تماس المقاصد الشرعية، نظر إليها من يرتكبها من طرف واحد وهو تحقيق مآربه، غافلاً عما يسببه من ظلم للضحية وما يجره من أذى للمجتمع.

أقول مكررًا: لو تخيل مرتكب الجريمة إلى أين سيقوده فعله واستنبأ ذاته، لأتته الإجابة من زوايا نفسه رافعة لافتات حمر:

- فإحساسه يستنكر، يقول له: إياك أن تخاطر وأنصت لصوتى ولا تجازف.
- عقله يتدخل قائلًا له: لا تنجرف مسارك معكوس.
- عبر التاريخ يولول صداها فى جوف الزمن تعظه: ابتعد فطريقك مغلوط .
- الشرائع والقوانين تنطق بما ينذر ويحذِّر ويحظر ويحاسب ويسائل، تحاكم وتعاقب، تودعه سجونًا مركونة لا مفرحة ولا مأنوسة.

عالم الإجرام مبتدؤه سلوكيات سالبة وفِعَال عابثة وتصرفات لا متزنة، إذا تركت تراكمت ثم عشعشت، تتطورمتدرجة يستوبئ وباؤها تفرغ إلى ارتكاب جريمة. أطرافها:

فاعل «مجرم». ومفعول به: ضحية «مجنى عليه». والسجن: مفعول لأجله «أى من أجل الفاعل الذى استحق العقوبة». الجريمة مآل كل غلط وملاذ كل خطأ ومرد انتهاك حرمة. هى مأوى كل اعتداء على قواعد مصانة أو افتراء على معايير مُجتمعة. يفعلها معتدٍ أثيم على أمان الناس، يسير مسار الخطيئة بفعل أو قول، يضر بمنافع العامة أو الخاصة ويستهين بقيمهم. لا يقيم احترامًا لنظم. منتهكًا حرمات، قافزًا فوق حجوزات مصانة، مزعزعًا الاستقرار أو فاشيًا لفساد.

وبما أن الوجه الإيجابى للنشاطات الإنسانية هو السوية ووجهها السلبى هو الغواية، فالأصل إذًا أن الإنسان سوى الفطرة فإذا خرج عن مسارها فسوف تحيله من السوية إلى السوئية مذعنًا لندائها

مراهنًا على المضى فى طريقها، غلبت عليه شقوته، يحمل نفسه بنفسه إلى عالم الإجرام.

والخلاصة أن السوءات طُعم الجريمة. فمن أشربها فقد خالف سويته، تسوقه إلى عالم الإجرام سوقًا.

والجريمة كما فنَّدها علم الإجرام والمشتغلون بعلومه أوجهها متعددة ونتيجتها واحدة. ومن نتيجتها ودوافعها وأسبابها صُنفت صفاتها وأخذت مسمياتها، كأن يقال: جرائم جنائية – سياسية –... إلخ وغير ذلك من التصنيفات فنَّدوها أولئك المختصون فيها موغلين فى دراساتها وأبحاثها. فالجريمة ظلت تكرِّر نفسها فعلاً ونتيجة، أما متغيرها فيكمن فى تجدد أساليبها وتنوع وسائل ارتكابها ومستجدات دوافعها وظروف ارتكابها. تبعًا لمعطيات زمانها.

فى عصرنا الحاضر تنوَّعت الجريمة ولبست لباس عالمها المتطور، تشكلت فيه أساليب واستحدثت وسائل مثلها مثل باقى أوجه الحياة. فكما هى تتطور فإن مكافحتها أيضًا محل تطوير ومكان بحث ودراسة على الصعيد الجنائى والعدلى. تلاحق جديدها لتواكبها على نفس الطريقة والنهج. فالصراع محتدم بين مريديها وسلطات مكافحتها والبحث فيها دؤوب وقائم انعكاسًا طبيعيًا للصراع بين الخير والشر إلا أن الثابت الذى يجب أن يستوعبه المستهترون بحياة العباد، أنه مهما انفلتت الجريمة أو زاغت عنها الأبصار فإن نهاية قطافها الوقوع فى يد العدالة.

إن الصراع بين الجريمة ومنع وقوعها وضبط مرتكبيها قائم على أسس الربط بين السبب والنتيجة والذى على أساسه توقع العقوبة.

فلا يظن ظانُّ السوء أنه مفلت من العقاب فإن فلت مرة فليس بالضرورة أن يفلت فى الثانية. ومن يترقب النشاطات الأمنية والملاحقات الشرطية فى القبض على عصابات الشر، والنشاطات الإجرامية جماعية كانت أم فردية يجد أن العمل الأمنى يتطور مع تطور الجريمة. لكن أهل الإجرام زاغت بهم الأهواء وعميت بصائرهم فلم يفقهوا ذلك. يظنون أنهم بفطنتهم يستطيعون تجاوز وسائل كشف غموضهم وأستار حجبهم التى يستترون خلفها، يخلطون الأوراق بالمراوغة والحيل والمكر مراهنين على حرفية تمويهاتهم، متوهمين أنهم فى مأمن عن عين الرقيب وفى منأى عن يد الحسيب، يخادعون أنفسهم ويختانون عقولهم غير عابهين بما هم فيه. يتناسون أن مدارجهم ملتوية وسلبهم مليئة بالأشواك سيتعثرون بها يومًا من الأيام، فاتهم إدراك الثابت مراهنين على المتغير وكأنهم يمهدون طريقهم إلى السجن مستعجلين. فهوِّنواعليكم خطواتكم قبل أن تعجل بكم إلى بوّابته.

فالسجن هو السجن ضاقت عنابره أو اتسعت أروقته، الطريق إليه واحد.

***

الطريق إلى السجن

هناك علاقة عضوية بين الجريمة والسجن. فهى طعامه والتمادى فيها شرابه، وهى بنت الخطيئة المسئول الوحيد الموصل إلى السجن. فالطريق واحد لا ثانى له وإن تعددت صورها وتلوَّنت أشكالها أو تفرَّعت مسالكها وترادفت آفاقها أو تباينت أسبابها وتشعبت دوافعها، فالجريمة هى ذاتها الجريمة من رحم الخطيئة تولد. فمن اقترف إثمًا أو أتى بهتانًا أو جاوز حدودًا أو انتهك حرمات أو اجترأ على فواحش، ومن خالف منظومة منظمة وقواعد معقدة وقوانين مقننة أو تعدى خطوطًا مرسومة، ومن استأنس بسلوكيات منكرة. ومن جانب منطق المعقول أو شرخ المنظوم أو عاث فى الأرض فسادًا أو سعى فى خرابها أو خرق ما تعارف عليه الناس من الشائع والمعروف، ومن فرَّط فى حق الوطن وتحالف ضده وشق على المسلمين وخان الأمانات وروَّع الآمنين، وأخاف المستأمنين، كلها توصف بنفس الوصف. فيقال لمن اقترف جرمًا يجرُّمه الشرع: مذنب، ومن خالف قانونًا مذنب، ومن سطا على حقوق غيره مذنب. تلك وما شابهها من أصناف الجريمة إن أتت كبيرة وإن أتت صغيرة توصف بنفس الوصف، تتساوى الصفات بوصف واحد مع فارق المستوى وحجم الجرم وظروف الواقعة وأسباب الوقوع فيها، كلها يطلق عليه ذنب يترتب عليه عقاب شرعى أو قانونى أو عرفى توجب عقوبة يودع بها مقترفها السجن. تلك نتيجة معروفة لا خلاف عليها.

تعريف السجن :

ما من أحد لا يعى معنى السجن، إنه مكان قضاء عقوبة لكل من صدر بحقه حكم قضائى أو احترازى، بقول أو فعل يجرِّمه الشرع أو تحرِّمه الأنظمة يحدث خللاً بنظام المجتمع أو يخلخل تركيبته أو يجيز محرماته أو يعمل عملاً منصوبًا على حرمه شرعية أو قانونية تبعده عن دائرة المعقول والمنقول، يتوقف عليها جزاء زمانى بمدة محكومة بقيضها فى مكان مخصوص وهو السجن ليس له مصدر آخر غير الجريمة، فهى الطريق الوحيد إليه لا ثانى له. فمن تجنَّب الخطيئة برىء من الجريمة وبها يبرأ من السجن.

ومن تنكبها وتلبَّس بها فهو مصيره، وموجب التعريف يقتضى إيضاح مفهومه.

وهو ما يعنى سلب حرية من يرتكب عملاً بفعل مباشر أو غير مباشر يجرمه الدِّين أو تحرِّمه القوانين، أو تحظره القواعد المنظمة

توجب صدور «حكم قضائي» أو جزاء إدارى ممن يمتلك حق توقيعه، يستند إلى صلاحية مخولة. القصد منه حفظ الانضباط وصيانة من الاعتداء أو تجاوز حدودها كإجراء وقائى تفرضه السلطة تقتضيه مصلحة الجماعة، وفى هذه الحالة يطلق عليه» حبس احتياطي» على ذمة التحقيق؛ لدفع ضرر أو حفظ مصلحة أو منع ما يشكل أذى على شخص أو أشخاص؛ حماية للنفع الجماعى .

ومن مترادفات السجن أن يطلق عليه معتقل وذلك فى الشأن السياسي.

وصف السجن: بما أن السجن مكان قضاء عقوبة فهذا يعنى أن مرتكب الذنب محتجز داخل أسوار عالية، وغرف ضيقة حصينة يودع فيها أسير حوزتها، محروسة بحراسات مشددة. ليله ظلمة وإن أضيئت ،أنواره مكفهرة وإن بانت معالمه، جوه موحش وإن خالط السجناء بعضهم، يعكس وحشة فى النفس أشد من وحشة المكان.

والسجن بهذا الوصف حرمان من الحرية الشخصية؛ عقابًا لمن اقترف إثمًا، وفى الوقت ذاته إعادة تأهيل وتهذيب؛ ليعود إلى مجتمعه عضوًا صالحًا.

الأصل فى السجن :

إنه عقاب لذنب اقترف موجب للعقوبة إلا أنها لم تكن العقوبة غاية لذاتها أو نهائية بل ترادفها أهداف تنبثق منها تضعها إدارة السجون فى أولوياتها فهي: تهذيب لسوء السلوكيات، وتقويم الاعوجاجات، وإعادة تأهيل السجين نفسيًا واجتماعيًا؛ ليعود عضوًا صالحًا متوافقًا مع مجتمعه، وإصلاح فساد التصرفات، وتصحيح الأفكار المغلوطة، ورسالة عبرة لمن يعتبر؛ لكى لا يسقط مساقط المذنبين فتضيق عليه الأرض بما رحبت، فالسجن ضيق مكانٍ وضيقة صدر.

الحالة النفسية داخل السجن :

لو قُدِّر لمحلل إجراء تحليل نفسى لسجين فسيجد أنه مثقلٌ بهمِّ العقوبة، ينطوى على شخصية مفككة، متهتك الذات، مشوش البال، قلق متوتر، تكاد تخنقه حسرة تفقده

توازنه. مركز على مشهد لحظة القبض عليه. ثم تتسلسل المشاهد كأنه يستعرض سيناريو بدايات غوايته. مكلوم على وضعه المستقبلى والاجتماعى والعائلى. تظهر على ملامحه تساؤلات وتصورات ضاربة فى قادم أيامه لكيفية تنفيذ عقوبة ذنبه ومدتها الزمنية. يحاسب نفسه حسابًا عسيرًا ويجلد ذاته من الداخل جلدًا مبرحًا. يتمنى لو لم يرتكب فعلته التى ما كان يتوقع أنه سيقع حيث وقع فى سوء تقديره. مستاء من تصرفه الذى أودعه السجن. آسف على فقدان حريته التى فرط فيها بإرادته وها هو عرف معنى تقييد الحرية. يتساءل كيف سيتحملُ محنة السجن؟ يقضى ليله كنهاره. تتراكم أحزانه. كسير الجناح كطائر فى قفص، معدوم الإرادة لا تبرح مخيلته تلك اللحظة الطائشة العابثة. سويعات مجنونة جامحة جنحت به مزالق منحرفة أسلمته رغباته إليها. لم يكتشف أنه كان متهورًا إلا بعد أن انتهت به إلى السجن، غيبت عقله ونحى حواسه مستسلمًا لهواه. فهذا قاتل أزهق روحًا محرَّمة فى لحظة طيش عابثة أو لوثة هياج متسرِّعة. وذاك اختلس مالاً أو سطا على ممتلكات لو قدّر نتيجتها لكان له فى أمره مرجع. وآخر منتهكًا للحرمات فى ساعة لهو وعبث وتسرُّع لو راجع نفسه لما أتى ما أتى. ورابع اجترأ على دين الله واستهان بحرماته لو آب إلى ربه واستغفر لذنبه لكان خيرًا له. ومن خان أمانة أو تجاوز حدودًا مصانة. واستخف بقيم أو سعى فى الأرض فسادًا. وأوسع عباد الله عنفًا وإرهابًا. واقترف بهتانًا واعتدى على حقوق ليست له. واستولى على مكتسبات ليس من كسبه الحلال، مستحلاً حرامًا. ومن ارتكب جرمًا واستباح محظورًا وسطا بقوة السلاح على المحلات الآمنة، ومن استولى على ما ليس له واحتال على غافل أو جاهل. ومن أخاف آمنًا وأشاع البلبلة وزعزع الأمان وأتى الكبائر أو استعدى الآمنين وسفك دماء المستأمنين وتجبر فى الأرض بغير حق أو عطّل مصالح العباد، ومن استرسل فى شهواته واتّبع بوائقها وأطلق عنانها، وعدد ما شئت من القضايا وأشكال الجريمة الموجبة للعقاب بسوء تقدير. فمن لم يكن له من نفسه رادع فما الرادع إذا إلا العقاب وولوج خشبة السجان والمثول خلف القضبان؟! مثل هؤلاء ومن على شاكلتهم أوغلوا فى الغواية عاقروا الجريمة. مآلهم عصيب وأمرهم عسير. ومن بين تلك الأصناف من السجناء يوجد من قادته الصدفة إلى السجن. استزله إليها من وثق فى مسعاهم ولم يدر بخلده فساد نياتهم. أخلد إليهم فأخلدوا به إلى السجن ينظر إلى نفسه بحسرة. خدعوه بقولهم، اغتالوا براءته بخبثهم واستغلوا سذاجته

وغفلته. قادوه إلى السجن بغفلته، غرروا به فمشى مشيهم وسار مسارهم على حين غرة منه متبعًا هواهم أو مقلدًا لهم. لم يخطر بباله أنه سيقع يومًا. نسأله: كيف سار فى ركاب المجرمين والمحتالين والمخادعين؟ كيف لم يخطر بباله أن الغواية تقود إلى السجن مهما أحيطت بأساليب الحماية وطرق التمويه؟ فالغواية خطيئة بنتها وربيبتها الجريمة كبرت أو صغرت. مهما أسدلت مغاليقها فلا بد أن يفوح ريحها وينكشف أمرها. فهى الطريق المباشر الموصل إلى السجن .

فما عالم السجون إلا ندامة تذرف لها العيون وتنزف لها الدموع، تضيق بها الصدور، إحساس وشجون بغبن مسكوب ما كان له أن يكون لمن له عقل موزون وحس يقظ يستدعى الحال ويتوقع المآل ويحسب حسبته حسبتين.

فخلف القطبان عالمٍ من الأحزان مجتمع محزون مهزوم كان بالإمكان أن يتجنبه من له قلب ينبض وعقل يفكر، لو تصور موقفه لارتعدت فرائصه واقشعر بدنه لكنه راهن على المضى قدمًا فيما هو فيه، لم يردعه وازع ولم يمنعه مانع، أصر على الرهان فيما لم يحسب حسابه حتى أقحم ذاته فى حرج الحسرة ومصادرة الحرية داخل غرف الزنازين الموحشة، فلو تصور هذا الموقف لكان له من أمره فسحة للتراجع.

فالآن لم ينفع الندم ولم يجدِ الاستجداء بعد فوات الأوان ولم يعد الأمر فى بيده بل أصبح فى يد غيره.

إذا قليل من الحصافة وبصيص من الحس كانت كفيلة أن تعيده خطوة إلى الخلف بدل أن يخطوها إلى الأمام، كانت له بها إدانة أودعته سجن المقامة.

صحيح أن النفس الإنسانية مجبولة على رغبات شهوانية وميولات نزوية تجذبها المباهج والزينة وحب المال والمكاسب وملهياتها وزخرفات مبهرة تهفو إليها النفس، لكنها ليست على إطلاقها بل وفق ضوابط ومعايير مقننة ومفندة تفنيدات جلية لا لبس فيها، لا تخضع لتأويلات قد يخرجها عن سياقها، فإن لم يراع معايير الضوابط لحفظ الحدود انفلتت القيود وطغى السيئ على الإيجابى وانفرط عقد التحفظ لتستحكم الشهوات وتتأجج الرغبات، تجمح ببعضهم إلى طرق معوجة خارجة عن الإجماع المتحفظ.

بعض الذين يقضون عقوبة السجن ويطبَّق عليهم قانون العقوبات لجرم ارتكبه كان خارجًا عن إرادته وإنما وقع فيه بطريق الصدفة أو غفلة أو سهوًا وشحَ تجربة ونقصان

خبرة، أو تحت ضغط المجاملة والخجل ومجاراة الآخرين. وبدافع إثبات الذات والدخول فى تجربة من باب حب الاستطلاع، أو تحقيق مكاسب معنوية أو مادية أو الاستمتاع بشهوة جسدية أو رغبات آدمية. أو انجرَّ إليها؛ تسلية أو نخوة وفزعة. مناصرة أو تعاطفًا، أو تضحية من أجل قريب أو صديق، أو طيش وجرأة غير مقدّرة أو مُغَرَّر به. وقس على هذا الكثير، فمن دخل تلك المداخيل فإنه إلى السجن لا محالة مورود وبالعقوبة مفجوع وبحسرة النفس مكلوم، لأنه نظر إلى ما أقدم عليه بنظرة قاصرة على سطحها ولم يغص فى عمقها فنظر إليها من شق السبب ولم ينظر إليها من شق النتيجة، فإذا ما حلّت النتيجة ناح وولول وعظمت عليه مصيبته. فإن قال له قائل: هل كنت تتوقع هذه النتيجة ؟ فسوف يأتيك جوابه: لا، ثم لا.

هكذا يقع المغرر بهم فى غياهب السجون، يعض أحدهم أصابع الندم يتضور حسرة، لا تنتفى عنه صفة مذنب أو مجرم أو مفارق الجماعة أو عاص جانح أو خارج عن القانون والأعراف، مجافٍ للقيم أو مجترئ على الأخلاق فسادًا أو ضلالا. ومثل هذه الصفات تلتصق به لمجرد ارتكابه خطيئة ما كان قاصدها لذاتها بل غافل عن طبيعتها أو غير واعٍ لجرميتها وعقوباتها، فتنطبق عليه نفس الصفة الإجرامية سواء أكان مدركًا أو ساهيًا، فالصفة واحدة فى نظر القانون.

فالعقوبة والجزاء يترتب على الفعل سواء أكان مقصودًا أو غير مقصود، فمن يُسخَّر لتهريب المخدرات وهو لا يعلم وإنما كان مجرد ناقِل أو مرسِل وقبض عليه هل يُعفَى من العقوبة بحجة أنه لم يكن يعلم مسبقًا بنية من استخدموه لتهريبها ولم يتعمدها بل غرر به أو استميل إليها بحيلة ماكرة؟ فالإدانة من عدمها حكمها بيد القضاء، ينظر إليه بحكم كامل أو مخفَّف. فالمهم أن العقوبة بحقه حاصلة، ولا مجال لإعفائه منها؛ لأنه مذنب والذنب موجب العقوبة.

فعالم الجريمة طريقها شائك كل من يدخلها تطبق عليه أسوارها، فلا تظهر حقيقتها إلا بعد أن توقعه فى شباكها.

كل سجين تتملكه حسرة وتتسنمه فجعة وتعلوه خيبة ويكاد يقضى عليه بأس الفاجعة التى لم يكن يتصورها ولم تخطر على باله مع أن أى ذنب لابد أن تطرق خاطر فاعله إشارات نابعة من الإحساس بالذنب، فيعمد على كبتها ويتجاهل نبضها، تطل عليه من زوايا نفسه تنذره وتحذره لكنه تحت نشوة الاندفاع لم يلقِ لها بالاً مندفعًا إلى تحقيق

ما يصبـو إليه متوهمًا الاعتماد علـى قدراته وحرفية مهاراته ومزينات مراده، فلما وقع فى بؤس عمله تملكته لحظات العذاب النفسى.

تلك وقفات محاسبة ذاتية يسائل نفسه متعجباً.. كيف وقعت من حيث وقعت؟ ويردف سـؤالًا بعد سـؤالا وعجبًا بعد عجب مسـتغرقًا فى بحر من التفكير، تصحبه تنهيدة بعد تنهيدة وزفرة بعد زفرة. فلا يهدأ له بال أو يقر له قرار، يحلل ما جرى ويفند ما حدث، يسترجع شريط الواقعة ووقائع أحداثها.

كل يحكى قصته بحسـرة وبعضهم يرويها بصمت فى داخله، يعيشـها غربة نفسـية لا يريد أن يطلع عليها أحدا؛ لفرط ما يحس من ألم سـيلازمه على مر أيام حياته، توخزه ملامة على حاله، تعصره ندامة لقاء ما فرَّط فى حق نفسه التى أوردته مورده مقيدة لحريته. فالحريـة قيمـة غاية المنال غالية الثمن لا يقدر قيمتها إلا مـن فقدها. فإذا كان قد قيل: إن الصحـة تاج علـى رؤوس الأصحاء لا يراها إلا المرضى فالحرية كذلك علامة على مهمة الطليق لا يراها إلا السجين .

من يتسـنَّى له الاطلاع على مشـاهد البؤس فى وجوه المساجين وتفرد بأى منهم واحد تلـو الآخر لمعرفة ورطتـه التى تورَّط فيهـا ويقضى عقوبتها خلف القضبان فما عسـاه أن يجـد؟ مروج مخدرات باع نفسـه؛ طمعًا فى الثراء، فرَّط فى نفسـه مـن أجل متعة مؤقتة زائلة لا تسـمن بدنه أو تطفئ عطشه أو تسدّ جوعته أو تستر عورته أو تقوى جسده أو تفى حاجته أو تقوّم صلبه أو تزيل كربته أو تسعد حال معيشته أو تزيل سقمه أو تشفى مرضه. لا بـل هى ضد معاكس لكل هذا وذاك، فـلا يصيبه منها إلا رهقًا ولا تجر عليه إلا هلعًا، تضرم فى نفسـه حرقة تحرق نعماه وتلبسـه بؤس الحزن وخراب النفس وسقمًا فى الجسم وضياع المسـتقبل واهتزاز الشـخصية، ثم جرأة على المحرمات وانتهاكًا للحريات واعتداء على الحرمات. والأدهى والأمَرّ أنه يعلم ما تنطوى عليه من مواد وسموميات دمارًا للنفس وتلويثًـا للعقل وما المـروج عن هذا ببعيد، إذ يعلم يقينًا خبثهـا وما تجرُّه على الناس من خراب لكنه آثر مصلحته بغض النظر عما تسـببه من دمار شـخصى وعائلى ووطنى، فهو أشد خطرًا على الشباب الأمة وتخريب أبنائها وما يتبعها من تفكك عائلى وإشاعة الفساد، مات ضميره بين أضلعه وتحجرت أحاسيسـه وتبلدت مشـاعره. فأى جريمة اقترفها فى حق مجتمعه وقد سـاهم فى تورط المتورطين ؟ روَّج لهم سمومه وسـَّهل لهم الحصول عليها

حتى ارتموا فى شراكه من حيث لا يعلمون، استسهلوا الدخول فيها فصعب الخروج منها فقادتهم إلى السجن .

بعض من هؤلاء السجناء من استوعب الدرس وخرج بتجربة دونها وصايا؛ ليعتبر بها من له قلب يعى وعقل يفكر وحس يتوجس. هذه الوصايا:

- يقول سجين: قبل أن أقع فى القبض كنت مستبعدًا وقوعه مع أن نفسى كانت تحدثنى أنى أعمل الغلط ولكن نشوة المراد أعمت بصرى، وكنت مندفعًا بدافع متحمس. فلا أنظر إلا إلى الوصول إلى مرادى، فلما وقعت أدركت أن نفسى سبق أن نازعتنى فلم أعرها اهتمامًا ولم أحسب حسابًا لحظة الوقوع فى القبض، فكانت نصيحته أن النفس فيها وازع خير فلا تستهن به. فكم من قادم على شر استوقفته نفسه ناظرًا إلى ما بعد الحدث فاستعاد من الشر ورجع عن الإقدام عليه !
- يقول آخر: أنا أنصح من إذا زلّت به قدمه إلى السجن أن يحذر من مخالطة عتات السجناء محترفى الإجرام.. تب إلى الله واعكف على مداومة تلاوة القرآن فسوف تحصد خيرين: خير التوبة؛ لئلا تعود لمثلها، وخير أجر الآخرة؛ لتكفّر عن فعلتك التى فعلت والندم على ما بدر منك.
- ويردف قائلاً: اعتبر فترة السجن أداة لغسل أدران الماضى، واقلب صفحة جديدة فى حياتك.
- وهذا يوصى قائلاً: لا تتقوقع داخل حسرتك بل أخرج نفسك من وضعيتها بالنظر إلى المستقبل بروح رضية واعتبرها تجربة ما كان لها أن تكون، أمَّا وقد كانت فأنت الآن تلقى جزاءك واستغفر لذنبك وتفاءل ببكرة عازمًا على ألا تعود إلى السجن.
- الذين زلت بهم أقدامهم فى طريق الغواية والمتع الشهوانية إنما هم طلاب المتعة المحسوسة ناسين النتيجة الملموسة التى يلمسون عذابها العقابى، عندها يبرز الملموس ويتوارى المحسوس. فقد انطبعت بصمتها على جبهته، يتوارى من سوء صنيعه، يستجر السنين الخوالى فى السجن ويقارن بين ما قبلها وما بعدها. يتذكر لحظات القبض عليه، يغمض عينيه وكأنه يريد طمس الصورة من ذهنه، ضاع منه كل شىء، تاهت منه الطرق وأزيلت المعالم، يسترجع ما قبل الخطيئة كيف كان فى أمن من العيش وهدوء من البال. صور بيضاء انقلبت إلى سوداء يتعذب بها اليوم. ماذا سيقول له من يقابله؟ أتوقع أنه سيقول: ذق الهوان الذى صنعته بيدك. هل تراه سيواسيه أحد أم

سيهزأ منه وينفر؟ فلو سيطر على هوى نفسه واستجلب خشية ربه ومهابة موقفه والعار الذى سيلحق به واستجاب لنداء ضميره، لما هوت به المهاوى وهبطت به المهابط على ردحة السجن. ولما شقى هذا الشقاء وهان هذا الهوان.

فمن زلقت به قدمه فسوف يسقط فى مستنقع نفسه، ويلقى مصيره منكبًا على رأسه، يدس وجهه بين يديه، يلوم نفسه، انحسر شعوره وخبت إحساسه واندفع مع أهوائه يداوى جروحه. فأين هذا قبل هذا؟ الآن استيقظ الضمير لكن بعد فوات الأوان. شاخت الهمة وذبلت القريحة فى لحظة طيش يشقى بها سنين واستدبرته أعوام.

كلهم نادمون يائسون مستاؤون مستسلمون، كانوا أداة طبيعة يحركها هوى وتزينها شهوة، يتلظى بنارها اليوم وبعد اليوم وغدًا وبعد غدٍ لا يفارقه أثرها مهما حاول وقاوم.

إليك يا من قسوت على نفسك، هوِّن عليك واستعن بالله فسوف تجده معينك، واخطُ خطوة للخلف إذا هممت بزلة تنجيك بعد الله من سوئها وعذاب سجنها ولسعِ النفس وإيلام الروح. فقط تماسك عند اللحظة الأخيرة وانظر حولك واسأل نفسك سؤالاً بصوت عالٍ:

إلى أين أنا سائر إذا نجحت فعلتى ؟ هل سأعاود كرتى؟ فمهما سلمت «الجرة فلابد لها من مرة». وهذه المرة الضربة القاضية فلا تقضِ على نفسك وأنت تسمع وترى ولك عقل وبصيرة لك أمنية وغاية. لماذا تقتلها فى عز شبابها؟! لماذا لا تعيش مثل عباد الله حرًا طليقًا؟

- اظفر بنفسك قبل أن تظفر بك.
- انتصر عليها قبل أن تنتصر عليك.
- تعددت الأسباب والطريق إلى السجن واحد.

مؤشرات الخطى إلى السجن :

يظل الإنسان فى حمى الله ثم فى حمى نفسه ساكن النفس هادئ البال حتى تهاجسه نزوة أو تهفو به هفوة تحومه فى حومة بواعثه. ذلك مدخل البداية وبوابة السوء. سببها هاجس فكرة أو نزعة هوى أو نزوة مشتهَى، تميل به إلى متعة ملتهى أو رغبة مبتغى أو طمع مال وكسب يجتبى. تراوده خاطراتها وتحوك داخله خلجاتها، تتداعى لها انفعالات عاطفية تضرم المشاعر تلهب الجوانح حتى يبيت بها منشغلاً باتجاهها سائرًا،

فمجرد هكذا تفكير فهو بادرة تحوم به على حول السجن إلا من حمى نفسه بسد نوافذها وإغلاق ثغراتها نجى من شرها، ومن فتح أبوابه هائمًا بها يصول فى لجاجها فقد هوى فى مطارح دوامتها.

فالخاطرة النازفة والاعتراك النزوى تدفع بصاحبها إلى مواقع السوء وطريق الاعوجاج. تتدفق عليه خاطرة بعد أخرى وفكرة بعد فكرة تفتح أمامه مجالات تمهد له طريقها وتقرِّب له مسافاتها، تسول له ما يريد ويشتهى، ترسم له مسارات تغمره فى خيالات تهون عليه صعابها. وفى غمرة الاندفاع لا يحسب حسابًا لنتيجة أو توقع سوء العاقبة فتتسارع خطاه مهرولاً إليها ملبيًا نداءها لتدخل إلى الإنسان كل حسب ميوله، فهذا متهور، وذاك سقيم فكر، وثالث محب للشهوات، ورابع ميال إلى جمع المال، وخامس مستعد للفساد، وسادس قابل للإغواء، وسابع يتأثر بالإغراء وقس على ذلك كثيرًا.

تلك هواجس نازفة وخواطر شاطحة. وهكذا تكون الهواجس فاتحة سوء إلا من سد منافذها طاردًا خواطرها.

فى السجن فات الأوان وحل الملام فما قيمة الندم الآن

الأصل فى الحياة أن يعيش الإنسان آمنًا فى محيطه مستقرًا فى بيئته مصانة كرامته محترمة حريته، يتصرف لكسب عيشه فى جو من الأمن ومناخ من الاستقرار خاليًا من التوتر سالمًا من القلق.

فإن يأتِ من يعصف بالسكون ويقطع الهدوء ويشيع الاضطراب بارتكاب المخالفات والعبث بالضابطات لا يراعى شرعًا ولا قانونًا ولا يرعى لعباد الله إلًا ولا ذمة، يحب أن تشيع الفاحشة مستهترًا بالقيم والأخلاق. فذلك باغى شرٍّ وداعى فسق ومتجاوز إطارات النظم ومتعدٍ على سياقات الحياة وعابث بحق الأمة، فما جزاؤه إلا العقاب، عقاب له وردع لمثله وعلاج لنفسه؛ تطبيقًا لشرع الله فيه.

فعندما يحل العقاب ويطبق عليه باب السجَّان تطلُّ من رأسه هموم وتركبه غموم، يرى الحياة بنظَّارة سوداء، يلفُّه حزن ويغشاه ضيق، يفترش اليأس ويتوسَّد القنوط ويتلحَّف الندم يصفِّق بكف كف ويشكى من الويل.

فالآن لا ملام يا مُلام، اعتديت وعبثت وأخفت، وركبت موجة هواك ونزوات نفسك، ومشيت مع نزغات هواجسك، عاكست خطوط السير وقفزت فوق الحواجز وتخطيت الموانع، فلا ندم ينفع ولا حسرة تشفع، فقدت زمام نفسك وانفرط عقالها، طوحتك متاهاتها فقد فات الأوان وحل الملام لا ينفعك الندم.

فمن يعذرك اليوم ؟ ومن يدافع عنك غدًا ؟ أما كان من الحكمة أن يأخذ الإنسان من يومه لغده ومن سروره لحزنه ومن سعته لضيقه ومن حكمته لسفهه؟ فمن لم يراع ذلك قبلاً فلن تراعيه ظروف المأخذ بعدًا.

وتذكر أن الخطيئة مهما استخفت أو موّهها صاحبها فلا مناص من الوقوع بسوءتها كارتباط طبيعى بين سبب ونتيجة التى تقرر بموجبها العقوبة.

فمن أقدم على عمل خارج عن نطاق المألوف غير عابه بالنتيجة تجاهلاً أو غفلة ولم يوق نفسه غير مدرك نهايتها، فقد يقع فى ضعف إدراكه حتى لو كان مغررًا به أو غافلاً أو جاهلاً. فهل تراه يفلت من العقاب؟ فالقانون لا يحمى المغفلين كما هى القاعدة السائدة..

- فيا أيها المفتون بهوى النفس، تراك بها مغبون.
- ويا أيها الهاوى فى المزالق، تراك بها ظميم.
- ويا أيها الساعى خلف سراب الخطيئة، تراك بها مظيوم.
- ويا مجيب داعى الشر، تراك بها مرهون.
- ويا داعيًا إلى الجريمة، تراك بها مكلوم.
- ويا مستهترًا بدين، تراك واقع ببأس عظيم.
- ويا غاف عن حقوق، تراك بها مدين.
- ويا غافلاً عن واجب، تراك عنه مسئول.
- ويا راعى فزة عجلة، تراك بها مأخوذ.
- ويا راعى شجار وخصام، تراك بهما مقود.

- يا هذا ويا ذاك ممن قلنا أولم نقل، أبعد نفسك واحفظ ذاتك وصن عرضك واخلص نيتك وانتبه لمستقبل أيامك واسعَ بحلال للحلال. وأكثر من ذكر ربك حصانة من الموبقات، واقرأ قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٨].

تذكر أن الله خالقك تكفَّل بك فاذكره يذكرك واحفظه يحفظك ولا تكل نفسك لغيره ولا تستحفظ إلا بحفظه.

تلبيسات الشيطان تدفع الإنسان للغواية

معلومة مكائد الشيطان لبنى آدم حيث يلبّس على الإنسان تلبيسات تغطى على مكامن التبصر وشل مناهل التدبير، مبتدئًا بتزيين تصرفات بسيطة يستسهلها الإنسان لا يرى فى الإقدام عليها غضاضة، يشكلها له بمظهر البراءة، يوسوس له بوساوس قابلة للتطبيق لا يرى بأسًا أو خجلاً أو حرمة، يبسطها كل التبسيط ليشرع فى التحضير لها، يحفزه بقوة باعثًا فيه حماسة الهاجس وتوارد الخواطر، يوهمه أن الأمر هيّن لا يستحق التردد، فإذا صادف ذلك هوى النفس ومرادها اتضحت الصورة وارتسمت خيالاتها وتنبهت نوازعها ليخرج من طور الوسوسة المنغلقة فى حيز التفكير إلى طور ميدان التفعيل مبتدئًا برسم خطة عمل لتنفيذ ما هو مقبل عليه، يستعرض صورة بعد أخرى، يستبعد هذه ويقرِّب تلك حتى يستقرُّ به الحال إلى خطة تنفيذية توصله لمراده باختيار الأسلوب والوسيلة، يوحى إليه بارتكاب حيل وتبريرات لتترسخ فى داخله قناعة أنه فى مأمن إذا أحكم خطته، تداعبه مشاعر هواه وما تشتهى نفسه فتغشوه غشاوة تعمى بصائره، فلا يرى إلا ما هو مقدم عليه ولا يدور فى نفسه إلا تحقيق مآربه. فإذا تحركت النفس اللوَّامة التى تنهاه عن السير فى طريق الغواية، كتمها متغافلاً عنها يسير قدمًا فى مبتغاه. مجتنبًا كل التوقعات والملامات والمحاسبات، يوهمه إبليسه أن افعل ولا تتردد وأقدم ولا تتأخر، يذكره بمقولات باطلة وأمثلة خائبة مثل: «من لم يغامر ما يجيب الغنائم». يرسم أمامه أن فعلته صغيرة إذا قيست بأفعال غيره، مزهوّ بنفسه أعمته نشوته عن إدراك باطله. هكذا تظل تطارده تلبيسات الشيطان حتى تقع واقعته. فإن وقع فى مخازى فعله ووقع فى يد العدالة عندها ولى إبليس يقول كما هو النص القرآنى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٢٢]. تبًا لها من دعوة الآن وقد زجيت بالمسكين فى قاع الغواية ومشيت به حتى أوردته الزنزانة خائبًا خاسرًا مع

تلبساتك وتوهيماتك، يردد الحول والقوة متسائلاً: كيف عميت بصيرتى وسولت لى نفسى؟ لماذا استصرخنى فاستصرخت له ودعانى فاستجبت له، وشدنى فانجذبت له؟ فماذا يقول لـه: ذووه والصحـاب؟ يقولون له: هيهات هيهات وقد وقع الفأس فى الرأس. الآن واجه مصيرك بنفسك! أين شياطين الإنس الذين استعان بهم شيطان الجن الذين شجعوك وصفقوا لك وألهبوا حماسـك؟ طاوعتهم مختارًا غير مجبور. لبسـت لباسهم الذى ألبسوك، قلبوا لك الباطل حقًا وزيفوا لك الخيالات حقائق. تشـبهت بهم، أوغلوا فى قلبك حب الشهوة وحببوا إليك الممنوعات والمحظورات.

يأتى من يزورك فيسأل فى نفسه: أهذا بالله مقامك أو هذا مكانك؟ أهذا بربك ما كنت تنتظر أو ما كان ينتظره منك والداك ؟ ألم تفكر فى أمك وأبيك وصاحبتك وبنيك؟ فلم ترحم أمك من الفاجعة وتشـفق على أبيك من البغتة، فأنت من أوغل فى هواه وباء أهلك بشـائن صنيعك. كيف لم يسـتيقظ ضميرك وتصغ لنداء حيائك من نفسـك وناسك؟ كيف ستتوارى عنهم أو توارى فعلتك التى فعلت وقد فاح ريحها واسـتوت بك فى السـجن، واشـتمت بوائقها وأصبحت على كل لسان، وتناقلتها الرسائل النصية للجوالات وربما مزودة بشواهد مصورة مما تركت وراءك، تراسلونها صوتًا وصورة وربما نشرت على مواقع الانترنت؟

مـا لـك – يا أخى – كيف تصانع واقعـك ؟ لقد كنت فى غنى عن كل هذا لو حركت فؤادك واسـتفتيت قلبك. واسـتنبأت عقلك لما آلت بك الأمور إلى ما أنت عليه. وما كان مصـيرك مـا أنت فيه ولما منيـت بصدمة عارمة هزت كيانك، صحـوت بعدها على وضع مأسـاوى لم يكـن فى قائمة ما ترنو إليه. إنها صدمة الغفلـة والانقياد المهووس إلى رغبات النفوس دون وقفة متأملة، فالتأمل صيانة والتألم ندامة.

قبل أن يقع شـخص فى فخ تلبيس الشـيطان وقبل أن يبدأ الخطوة الأولى لعمل يجهل نتيجته، لو اسـتفتى قلبه فقلب المؤمن دليله، واسـتنطق حسـه، فالإحساس نبض النهى ومنظرة الباطن تعبيرًا عن انقباض الفؤاد بمؤشر خطر قادم من فقه نبضه. يحلله ويستقرئ دلائله مستوقفًا عنده. فنفسك ذات قيمة وهى أحفظ عليك من سواها. فلا تدن بها الدنايا ولا تهبط بها المهابط. ولا تكن فى مرية من ذاتك أو حيرة من أمرك. أبصر بعيون فاحصة إلى ما ينتظرك من مجهول لترى الحق حقًا فتتبعه والباطل باطلاً فتجتنبه.

فمن لم يسـتفتِ قلبه ويتفحَّص مواقع قدمه ويتبصَّر ملامح ملبسـات الشيطان فى نفسه ومخادعه للإنسـان والإلحاح عليه باقتراف السيئات. فهى خطوته الأولى تتلوها خطوة إلى

السجن. تمثَّل بحديث نبيك صلى الله عليه وسلم: (**الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ**).

فإذا ما نزغك نزغ من الشيطان فاستعذ بالله. اجعلها ضمن أذكارك الصباحية والمسائية كما ورد في الحديث أن رسول الله كان يقول: (**تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ**). هاود نفسك وغالب هواك، وانتصر عليه، فمن لم يغلب نفسه فسوف تغلبه.

من تلبيسات الشيطان: اتباع خطواته

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [سورة النور: الآية ٢١]. فهو يدخل على الإنسان من مداخل متعددة وأشكال متنوعة، يغلفها بتزيينات وتوهمات وخيالات وتصورات تتسرب بالهوينا ويتجرعها بالرويدا. فمن استجاب له فتح أمامه أبواب المنكرات وزين له روافد المستحبات والمشتبهات، وحرَّك داخله روافد الشهوات حتى يقع في الحرام وعمل الخبائث والمنكرات، يستسهل الغلط ويستهين بالواجبات الشرعية والقانونية، فهذه مقدمات خطواته أن يلبس على الإنسان الحق بالباطل والمستحب بالمكروه يزيل من النفس الخشية، حتى إذا تساوى عنده الحلال والحرام والحق والباطل والمستقيم والمعوج والجرأة على الحرمات. عندها يتبعها بخطوة أخرى بتحريك الرغبة وتأجيج الشهوة، يستدرجه لاستباحة الحرمة، حتى إذا ما التهبت نفسه حماسة وامتلأت بأفكار جياشة يكون بذلك في حالة استعداد متجاوزًا مرحلة التردد. فشهوته الآن حاكمة ورغباته ضاغطة تقوده حيث وجد متعته، استحكمت فيه لدرجة أن هواه ضالته يبحث عنه أينما ولى واتجه. تركبته روح شيطانية، لا يرى فيها خللًا أو اعوجاجًا. لكنه ومع هذا الكم من التلبيسات تبقى في النفس بقية من نوازع النهى تطل من رأسه بين آونة وأخرى ومضات الفطرة؛ لتوقظه فلا يستجيب لها؛ لأن الشيطان ألبس عليه رداءه وغطَّى على بواطن التفطن حتى خبثت ذاته وتلوَّثت أفكاره، يترجمها بأفعال خارجة عن نصوص الحياة الطبيعية يدخل بها عالم السوءات من أي أبوابها شاء: من باب الشهوة الجسدية، أو المتع النفسية. أوأفكار ذهنية، أو باب الطمع وحب الاستحواذ

والاستيلاء على حقوق غيره وأكل أموال الضعفاء وبطر النعمة. والاستخفاف بدين الله وفرائضه، بتنظيرات ملتوية يقلب موازين الحل والحرم. وتخيل ما شئت من تلبيسات الشيطان تلك وما شابهها من موروثات السجون.

ومن تلبيسات الشيطان: إظهار الباطل على أنه حق وقلب الحقائق

يعنى أن يشجع الإنسان على فعل من باب مشروع ليرتكب باطلاً موهومًا بسلامة منطقه. بينما حقيقة الأمر استدراج لإيقاعه فيه. قال بعض السلف: إن الشيطان يفتح للإنسان تسعة وتسعين بابًا من الخير وبابًا واحدًا من الشر يلج منه. يصغِّر الكبيرة ويهوِّن القبيحة. فرب فعل يستصغره الإنسان يجرُّ عليه ويلات لاحقة وفعل بسيط يستهونه يشكل مدخلًا إلى ما هو أعظم فيكون خطوة إلى السجن.

ومن تلبيسات الشيطان أيضًا النزعة والنزغة:

لاحظ أن بعض الخواطر نزع شيطانى ينفثها فى صورة خلجات متدفقة. فإن أنست استقبالاً مستحسنًا فقد أصابت موقعها فى النفس، وإن لاقت فزعًا وصدودًا تلاشت فلا تجد لها موقعًا تتفاعل فيه. فالخاطرة ترد على الإنسان فجأة تلوح على البال خاطفة.

فهى إما نزعة أو نزغة. فما كان نزعة تزع الإنسان لعمل خير يعود عليه أو على الآخرين بالنفع أو على الأقل فعل مباح غير منكر ليس مكان جدل أو استغراب من حيث القبول أو الرفض فنقول عنها: نزعة بر. فإن لم تكن كذلك فهى نزغة من نزغات الشيطان. إذًا الخاطرة تولِّد إما نزعة أو نزغة. فالأولى: موجبة تحرك عوامل الخير، والثانية: سالبة تنفث عوامل الشر، وهى التى تحرك الرغبة وتثير الشهوة، تجمل المذموم وتحبب المكروه فإن دفعت بالتعوذ منها يتناقص مثارها كرذاذ الماء يمتص الشرر يخمد تأثيرها. فمن شاغلته نفسه باستثارة الغرائز ألجمها بالاستعاذة مكررًا التعوذ مرددًا قول ربه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [سورة المؤمنون: الآيات ٩٧ – ٩٨]. فالنزغة تبدأ بمداعبة العواطف بجرعة مركزة مثيرة للغرائز. تدعوه لعمل منكر وفعل فاحشة. والكيِّس من يدافعها. فإن بداية خطوات المدافعة تفتيت وحدة تركيزها إلى أجزاء وذلك بالنظر إليها من أبعاد مختلفة:

– من حيث كونها مصنفة فى عداد الحرام والعيب.

- ثم من قبيل الفضيحة أو ما يولّد نقيصة فى نظر الآخرين.
- منظورعبرة من سوابق يقارن موقفه سيكون مثلهم .
- تصورموقفه أمام أهله وذويه ورفاقه.
- تصور حاله وهو ماثل أمام القضاء وسلطات التحقيق وهو يقتاد مكبلًا بالحديد مكنوس الرأس مطأطئ الهامة غاض البصر. يعلوه الخجل مخطوف الوجه ذابل النظر، يتوارى؛ لئلا لا يراه أحد يعرفه.

هنا سوف تتبدد بذرة النزغة ويضعف تركيزها، فإن لم ينظر بتلك المناظير لتفتيت تركيزها فسوف تستحوذ عليه وتتمكن منه وتستلهب الشهوات معطلة كوابح الذات فتحكم قبضها تتوه بصاحبها إلى مراتع الملذات. فمجرد قبول خاطر النزغة دون مدافعة فهو مقربة إلى السجن.

فاستلهم الرشد فى القول والعمل. وقل: اللهم ألهمنى رشدى وأعذنى من شر نفسي، فكان نبى الهدى يقول: فيما ورد عند الترمذى: **(اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنْ مُنْكَرَاتِ الْأَخْلَاقِ، وَالْأَعْمَالِ، وَالْأَهْوَاءِ)** الأذكار للنووى ص ٣٤٨.

ومن تلبسات الشيطان الإغراء :

ما من إنسان إلا يعلم مكائد الشيطان لبنى آدم ومع هذا يقع الكثير فى حبائله. فبعض النفوس ضعيفة أمام المغريات خاصة مثيرات الشهوة ودنيا المال، وتزداد ضعفًا إذا صادفت هوانًا نفسيًّا وغيابًا عقليًّا ليندفع إلى ما يغريه، فلا يتورَّع من أن يعاقر محرَّمًا عند حصول متعة أو يقترف جرمًا مقابل مال متجاهلا كل المحاذير راميًا وراء ظهره بكل القيم وطهر الأخلاق.

فمن ضعفت نفسه قويت شهوته، ومن قويت شهوته ارتكب من أجلها المشقات مجندًا لها كل ما أوتى من قوة فى سبيل حفنة مال أو متعة حرام، فيرتكب الخطايا، تغريه المزينات، يسيل لعابه لزخرف الجماليات المحرمة مستسيغًا غواياته، لا يتوانى إن عرض عليه ما يستهويه ولا يتراجع عما يستحلى فعله، فلا يقيم وزنًا لشرع أو يعطى قيمة لخلق، همه متعته وحسبه مرتعه، فهو مع من يقول: اليوم خمر وغدًا أمر، غير مبالٍ بما ينطوى عليه الغد نسى أن الهوى متعة زائلة بزوال وقتها ويأتى الغد ليطلب متعتها من جديد والحبل على الجرار. فهو عاجلاً أو آجلاً سيقع فى أتونها مهما استقصى من

التحوطـات ومهما أجاد من الأسـتار، فمن غاص فى بحـر هواه قرَّبه خطوة ثم خطوة تزج به إلى السجن.

هلا علمنا أن الوقت المناسـب للشـيطان ليسـلط سهامه إلى الإنسـان هو وقت الفراغ. فكما يقولون: إن لم تشـغل نفسـك انشـغلت بك فاظفر بها قبل أن تظفر بك. وهذا يعنى أن الشـيطان يستحوذ على الإنسان من باب الفراغ بهاجسه بملهيات. ويصور له مغريات يحلحل تحفظاته بما يلهيه ويدخل به زوايا اللذة. فالفراغ أحد مداخل الشيطان، ولا تقل عن شيطان الجن، وتغفل شياطين الإنس الذين ينفخ فيهم إبليس نفخاته، هم ربما أخطر؛ لأنه سقاهم كؤوس شيطنته واستعملهم على بنى جنسهم، فإياكم والفراغ فإنه أبواب مشرعة لغزو النفوس وتلويث الأفكار وتحريك مؤثرات الإغواء.

ويزداد تركيز الشـيطان على الإنسـان إذا تزامن الفراغ مع الوحدة ففى الأثر: الشيطان مع الواحد .

ومن تلبيسـات الشيطان تزيين السوء فى صورة الحسن. يقول تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۚ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [سورة فاطر: الآية ٨].

بعضهم يقبل على أعمال سـيئة فيراها فى عينه حسـنة فينشرح لها صدره، يستعذب ملذاتها، يستسـيغها لأنها ترضى غروره بمسـرتها الموقوتة بوقتهـا، قد تنقلب عليه كآبة وكدرًا إذا دارت عليه دوائرها. عندما ينكشـف أمره يبوء بأوزاره وما زيَّن له شـيطانه فقد أصابه الضنك وضاقت عليه نفسـه وملئ جزعًا فكان عليه غمة، وباءت به ندامة. وبدأت سـاعة المحاسبة، حسـاب القانون يقضيه فى السجن، وحساب النفس يقضيه فى عذاب الضمير؛ لقاء ما اقترفت يداه. لسان حاله يقول: آه بالأمس كنت فى براح واليوم فى ضيق، كنت فى مأمن وأمسـيت فى مأزق، كنت فى يسـر وبت الآن فى عسـر، يرفع ناظره إلى السقف؛ ليتأكد أهو فى علم أم فى حلم .

النأى عن الزلل : بإغلاق منافذ الشيطان :

إن تسـاور إنسان أفكار شـاطحة وهواجس مفرطة خارجة عن إطار المعقولية والصواب قـد تجنح بـه إلى مواطن الرذيلة وتبعـده عن مواقع الفضيلة، تجـره إلى خطيئة فهى من تلبيسـات الشـيطان فمن بادر إلى قفل منافذها محوطًا نفسـه بتحوطـات إيمانية متواترة

تحرسه من نزغات الشيطان فلا يجد إليه منفذًا فتلك حصانة المسلم. منها قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [سورة المؤمنون: الآيات ٩٧ – ٩٨].

على عكس من لا يحوط نفسه من الحبائل الشيطانية فإن أبوابه غير مقفلة يسهل الدخول عليه منها؛ لأنه لم يضع حراسة على أبواب نفسه، تنغزه خواطر فيتفاعل معها ينشرح لها صدره، هاتيك نموذجان لمبتغى الفضيلة وطالب الرذيلة، فالأول: استعصم بالله من أن يركب ركاب نفسه، والثانى: استجاب لندائها. فمن كان عصى على نداءات النغزات فقد نأى بجانبه ومن كان مجيبًا لها منساقًا معها تحوم حوله هبوبها، تطوقه شباكها تطيح به فى دائرتها. فأين الأول المستعصم من الثانى المستهوى؟!

فالنأى عن الزلات توجبها عوامل هى:

- عامل إيمانى: تقوى الله وخشية عقابه.
- عامل نفسى: استحضار ما سيؤول إليه وضعه إذا وقع فى القبض؛ خوفًا من النتائج.
- عامل اجتماعى: من حيث نظرة الناس له من خلال قانون العيب وإشفاقًا على نفسه من اللمز والهمز والهمس والإشارة إليه بالبنان، تلوكه الألسن فى المجالس، تلك عوامل المنئيات تنأى بالإنسان عن مقارفة الرذائل ومطاوعة الأهواء ومجانبة السير فى ركائب الزائغات، عالمها مفتوح على ظاهر ممتع قصير، باطنها خسران طويل. فمن استحضرآلية النأى عن الزلل نجا بإذن الله من بأسها.

تقنيات شيطانية:

تلبسات الشيطان تستخدم تقنيات غاية فى الدقة، آلياتها الدس ودغدغة الشهوة وشغف الملهيات، أدواتها المزينات وزخرفة الهواجس وإثارة الغرائز، يحركها الإيهام بخيالات وإيقاظ النزوات، لكن الإنسان الفطن والمؤمن المستقيم يلوذ بخالقه من حبائله عالمًا أن كيده ضعيف أمام قوة الإيمان.

وهو أيضاً ليس له سلطان على عباد الله المعتصمين بالله من مكائده. فهو يقود الإنسان إلى الغواية والغواية خسران فى الدنيا والآخرة. ورد فى الحديث أن الشيطان يجرى فى الإنسان مجرى الدم وكأن فى هذا كناية أن له مداخل متعددة فى الجسد يحرك النوازع بواسطة تقنيات وذبذبات يتسلل منها إلى النفس يلهب عواطفها ويؤجج مشاعرها، فهى

تقنيات غاية فى الدقة يخنس بها النفوس ويوسوس الصدور. يقول تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦﴾ [سورة الناس: الآيات ١ - ٦].

لقد سمعت من يحلل هذا المعنى بمنطق العلم الحديث. يشبه ذلك بمن يسلط على إنسان حزمة إشعاعية أو موجات أثيرية تتسرب إليه دون علمه، يمتصها الجسم الآدمى. تجرى فى شراينه وأوردته فتصيبه صرعتها من حيث لا يدرى.

بمثل ذلك يسلط الشيطان ووسوسته. يوجهها إلى مراكز معينة فى المخ. تشكل حالة ضبابية على نقاط التفكير الإيجابى؛ لإضعاف نشاطه. بينما تنشط نقاط التفكير السلبى، وهذا يعنى إضعاف جانب الإيجابية وتقوية جانب السلبية، لكنها لا تقوى على شل التفكير الإيجابى بالكلية تمامًا مثل شخص يخيِّم عليه ما يكتم نفسه كتمًا جزئيًا فيبقى يتنفس نفسًا بطيئًا، فإذا انزاح عنه ما جثم على أنفاسه استعاد نشاطه يتنفس الصعداء. وهكذا وساوس الشيطان وتلبيساته تبقى ضعيفة والشاهد فى ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ۝٧٦﴾ [سورة النساء: الآية ٧٦]. معنى ذلك أن الشيطان يرسل إشعاعات ومضية يدغدغ بها مواطن الشهوات ومواقع النزوات، فمن استجاب لها وتفاعل معها واستهواها فى وهلتها الأولى فقد استجاب لنداء الشيطان وتلبيساته فسوف يبسط عليه رداءه؛ ليعطل ما بقى من وميض التفكير الإيجابى ويسيطر على بصائره منصتًا لوساوسه وهواجسه. فيزيد من جرعاته باستدراجه بالهوينا يصبح نهبًا لميوله وإشباع رغباته وإرضاء شهواته؛ فيدخل عليه من مداخل متعددة فيرديه صريع غرائزه وألاعيبه مع أنه يقدر أن ينتشل نفسه من مهاويه إذا أدرك لعبته الشيطانية، وكيف يجرى فيه مجرى الدم ليسد منافذ الولوج إليه، ينشط مدركاته الإيجابية التى لا يقدر الشيطان على شلها بالكلية ليبقى عند الإنسان قدرة على المقاومة لما تستبطن فطرته من عوامل الفضيلة التى لا تخبو ولا تأفل.

فكما لكل صوت صدى فإن الفضيلة لها صدى يتردد فى الداخل غير مسموع. فصداها ما يعتلج فى النفس من توقعات وتوجسات محذرة من الوقوع فى السيئ.

ولنا أن نتصور الخائف فهو غالبًا ما يتردد بسبب ما يعتلج داخله فتراه يترقب ويتلفت يمنة ويسرة؛ خشية أن يراه أحد؛ لأنه يعلم أن ما سيقوم به خطأ. هنا يأتى دورالحصافة،

فالحصيف من يجعل من هدى داخله وقفة لاستظهارإحساس خشيته لعلها وليجة للإقلاع عمـا هو قادم عليه. فالخشـية والتردد وقاية من الوقوع فـى المحذور وكما هى القاعدة من حذر سلم.

ظواهر سلبية

من قال: عالمنا اليوم عبارة عن قرية كونية تقاربت أوصاله وتجامعت أطرافه فقد أصاب كبد الحقيقة .

فالمرء يلاحظ أنه ما يكاد يظهر متحول اجتماعى أو مستجد سلوكى أو ظاهرة جديدة أو صرعة فنية أو موجة جارفة أو نشاطات عابثة أو تيارات جانحة وإن كانت تنحر الأخلاق وتغتال الفضائل فلا تكاد تظهر فى أرجاء الدنيا إلا وتجتاح المجتمعات وسرعان ما تطفو على سطحها، يتبناها بعضهم ويتحفظ عليها بعضهم الآخر متوقفين عندها، تساورهم مخاوف أن تطغى على التقليدى الموروث وتطمس المحافظ المألوف معللين تخوفهم أن التحولات المستجدة عادة ما تسبقها إرهاصات مزعجة تنذر بحلول سلوكيات سالبة تشكل نتوءات صاخبة على خارطة السكون الاجتماعى. أما المقبلون عليها يبررون إقبالهم من قبيل أنها إفراز طبيعى لتحوّل حضارى فرضه متغيّر الزمن يرون مناوأته. يعنى تخلف عن ركب العصر والتحفظ لا يعدو أن يكون خوفًا وقتيًا لا يلبث أن يتلاشى مع الوقت. وبين الاتجاهين تبدو المعادلة بين متنازعين يصعب فك الارتباط بينهما. لكن من يرصد حركة المستجدات يرى ما تموج به الساحة الحياتية مما يسمع أو يقرأ ويشاهد ويعايش، يجد أن ثمة سلبيات حلت باندفاع المتحمسين دون تحفظ، جلبت معها مساوئ فى صور شتى باتت تمارس، ينوء بها الكاهل الفردى وأثخن بها العاتق الاجتماعى، ساءت فى غضونه أخلاقيات التواصل وفسدت علاقات التآلف وتراجع التراحم، وتناءت القرابات وتداعت المصداقيات وجفت العواطف.

كيف تغلغل هذا الحال فى أوساط مجتمع يوصف بالمحافظ ؟! إذا أخذنا فى الاعتبار أن الدنيا هى الدنيا تسير بمعدلات زمانية محسوبة فى علم خالقها لن تتبدل طبيعة مسيرتها تدور أيامها تتقلب شروقاً وغروباً ليلاً ونهارًا شهورًا وسنين سنة الله فى مسار الزمن ولن تجد لسنة الله تحويلاً أو تبديلاً. فأين مكمن التحول فى الزمن أم فى الإنسان طالما أن مسيرة الزمن متواترة ؟ إذًا التحول يكمن فى الإنسان الذى هو مدار الحياة ومحور مسارها هو أداة تبدلات مظاهرها يواطئها مع عصره يشكلها بحسب زمانه بأساليب تناسب

حداثته ووسائل مستجداته. وفى خضم الجديد يتراجع القديم لتبرز ظواهر لم تكن فيمن كان قبلها. سلوكيات غير مسبوقة اختفت معها قيم وتوارت فضائل لدرجة أصبح المرء يسمع عن سلوكيات شاذة وتصرفات منكرة لا يجد مرتكبها غضاضة فى ممارستها، شاع سوء الخلق وسادت أعمال الطيش ودخل الردع الاجتماعى والشعور بالخجل فى غيبوبة، وقام من يتبنى مشارب جديدة دون وازعات أو إفزاعات كيل من التصرفات كانت فى سلال العيب ومحافظ الحياء باتت فى خبر كان. تطرق المسامع فى المجالس فيض من المحدثات توردها الصحف والمجلات مصحوبة بتحليلات ومصنفات تنذر بقادم أسوأ، ناهيك عما تسمعه فى وسائل الإعلام وما تشاهده صوتًا وصورة على شاشات قنوات التلفاز تستغربها، تشجع على المعصية وتثير حفيظة الشبهة فيمن لديهم ميول واستعداد سلوكى لمحاكاتها دون رادع أو ضابط. ففى السابق مثلاً كانت العلاقات مضبوطة بضوابط اجتماعية عرفية تنكر أى عمل غير مألوف، فمن يهم بزلة يجد من يناصحه ويستغرب فعله أو ينهاه، ومن يقدم على سرقة أو تحرش أو خروج عن حدود اللياقة والأدب لا يجد فى نفسه خشعة عيب أو رهبة ملام واحتساب فضيلة، يحاسب نفسه على أساسها على مبدأ: الحياء شعبة من الإيمان. وعندما انكفأ الإنسان على ذاته ولم يعد يهمه إلا نفسه ساد العبث كرد فعل للفعل وضده، أى عندما غابت الفضيلة تفشت قلة الحياء على قاعدة: إذا لم تستحِ افعل ما شئت .

فإن تركن إلى شخص صادفته فى طريق منقطع أو طويل فتتعاطف معه لتركبه معك، فما أن تسير غير بعيد فإذا به ينقلب شخصًا آخر شاهرًا عليك سلاحًا؛ بغية الاستيلاء على سيارتك أو نهب جيوبك. وقس على مثل هذا ما يطرق المسامع عن – عقوق الوالدين – الجرائم الأخلاقية – جنوح الأحداث – الخداع والتحايل – التفكك الأسرى – غرابة بعض الممارسات مثل: من يدخل إلى جهاز الصراف ليسحب بعض النقود فى ساعة متأخرة من الليل فيفاجأ بمن يتربص به ليستحوذ على ما سحب – حسابات البنوك طالها العبث الإلكترونى فيما يسمى (الهاكرز)، يدخلون على حسابات المودعين مخترقين آليات التشفير الصارمة ومع هذا يجدون ثغرات يدخلون منها بطرقهم الخاصة .

– ومما يتداول فى بعض الأحيان أن هناك من المستهترين من يترقب المارة فى الشوارع الخلفية أو الزوايا البعيدة عن الأنظار بغرض السلب والنهب بالقوة.

– ومن يتسنى له أن يضرب ضربته بعيدًا عن الرقيب باعتداء وعدوانية فلا يتورع عن القيام بضربتـه بلا رادع من ضمير أو وازع من دين أو شـعور عيـب، يفعلها دون خجل فارًا بجلده ويترك ضحيته أو ربما يؤذيه بما يعيقه عن المقاومة أو طلب النجدة .

وعلى هذا المنوال تسمع الكثير وتقرأ فى الصحف ووسائل الإعلام ترادفات لأفعال تلهب المشـاعر وتهز الضمائر تقلص الشعور بالأمان النفسى. فى حين تبذل أجهزة الأمن قصارى جهدها فى ضبط الحالات وتعقب مرتكبيها وكبح جماح العابثين بأمن الناس.

هـل تجلطت الضمائر أم غـارت الوازعات فى ردهات الهوى. وحلت محلها النزعات الطائشة؟!.

فى المجالس تسمع بمثل هذه التصرفات، ويتناقل الناس بعض المتفرقات من سلوكيات غـير مسـئولة لم تكن موجـودة قبل جيل أو جيلين من الزمن. كيـف وصلت موجاتها إلى بيئتنـا؟ هل بفعل محاكاة الأفلام وتقليد المنقول والإعلام المشـاهد والمسـموع والمقروء؟ وقل ما شئت من الأسباب، فلسنا بصدد البحث والدراسة التى مكانها مراكز أكاديمية وبحوث اجتماعية ونفسـية، ولكننى أوجز القول فيها بسـؤال: هل الشارع فقد انضباطه؟ ربما فقد كان الشـارع مضبوطًا بضوابـط أخلاقية ومحكومًا بأحكام مصونـة، فمثلا: كانت الأحياء ينتشر فيها دكاكين صغيرة كنقاط بيع متنوعة يؤمها أهل الحى لشراء مستلزماتهم الخفيفة اليومية، فلا يخلو الشارع من جيئة أحدهم أو روحته فيتلاقى الشباب يتبادلون الأحاديث وبهذا يبدو الشـارع عامـرًا بأهله. وهم فى ذلك بمثابة حرس تلقائى ورقيب شـعبى لكل عابث أو عمل طائش فلا يستطيع أحد أن يقدم على عمل مخالف أو تصرف مخلٍ إلا كان تحت النظر ترقبه العيون وتنكر فعلته، فيهبُّ أحدهم لمنعه أو ملاحقته مما أعطى للشـارع حرمته وفرض احترامه.

ومن الضوابط المفقودة انعدام الهيبة التى كان يفرضها عمدة الحى، فهو فى مركزه عين ناظرة فضلاً عن سلطة يهابها المارة فى الحى، فبغيابها فشت السلوكيات السلبية مما شجع العابث لفعل فعلته سرقة كانت أو تحرش أو مضايقات أو خروج عن حدود اللياقة والأدب دون أن يجد فى الشارع من يردعه أو يشهد على وقعته .

فهل فقدان هذه الخصال هى السـبب فى ظهور بعض التصرفات الطائشـة ؟ ناهيك أن سكان الأحياء كانوا أنفسهم عيونًا مفتوحة ملاحظة لأى سلوك سلبى، فلما تخلوا عن هذا الدور قلل ذلك من الاحترام العام ما أدى إلى شيوع سلبيات عابثة، وهو ما يبرهن أن ضعف

ضابطات السلوك ساعدت على انفلات الشارع كانت بمثابة روادع تلقائية شعبية تفرض رقابة تردع من تسوّل له نفسه العبث بسواكن العيش .

- ومن السلوكيات السلبية تلك التى تصاحب التحولات الاجتماعية التى تطرأ على المجتمعات بفعل حركة الزمن. تقترن بها متغيرات لا تخلو من تأثير فى منظومة القيم الموروثة تعكس بسلوكيات غير معهودة من قَبل. فرضها الحاضر المعاصر وأقبل عليها المتأثرون بها غير واعين لمردودها السلبى. أدخلت تصرفات خارجة عن رتم الحياة المعتادة لا تلائم تعاليم الدِّين ولا الأعراف السائدة، أخذت صفة التغلغل المتدرج. وبحكم أن لكل جديد مذاقا يستهوى بعضهم للانجذاب إليه يلبسون لباس حلته خاصة فئة الشباب منبهرين بقالبه العصرى حتى وإن تعارض مع قيم وتصادم مع أخلاق. الأمر الذى تخلخل معه التوازن بين سائد متجذر وجديد طارئ تنشأ عنها صدمات اجتماعية تشكل مشادة بين الحالتين.

ناهيك عن برامج انفتاح الشعوب على بعضها. تداخلت فيها ثقافات وسادت معها مفاهيم وتبعثرت الأفكار على بعضها. شجعت على محاكاتها وأخذت على علاتها دون تمييز أو سوء تقدير لحساب نتائجها. تجرهم إلى ساحتها بلا هوادة، فمن الناس من ينقاد بعفوية خلف مظهريات لمّاعة ومنهم ينساق خلف وعود برَّاقة وبعضهم تعجبه تنميقات القول المصاغة بصياغات بليغة خادعة يؤمونها إعجابًا أو تقليدًا تشبُّهًا أو ما يسمى بغسيل مخ؛ لاعتناق مذاهب فلسفية وتفسيرات متأولة يخوض فى جدليات خارجة عن مدلولاتها العقلية، تدلس الواقعية وتقلب الحقائقية بمرجعية براهين واهية لا تمت للواقعية بطرف أو تمس عقلانية.

ولنا فى مثل هؤلاء شواهد فعلى سبيل المثال لا الحصر جماعات الإرهاب التى تغرِّر بالشباب؛ لجرهم إلى ناصيتها. تدفع بهم للقيام بعمليات انتحارية. يوحون لهم بأنه عمل جهادى .أو تجار المخدرات الذين يغررون ببعض الشباب لترويج سمومهم، يعدونهم بمرورد مالى مجزٍ. أو منظمات الجريمة المنظمة التى تستدرج أصحاب الميول الشهوانية. يرتمون فى أحضان أوكارهم للقيام بأعمال إجرامية تدرُّعليهم أموالاً وفيرة؛ ليشيعوا الفساد.

وعودًا على بدء حين قلنا: إن هناك اتجاهين فى أمر المستجدات السلوكية: اتجاه متحفِّظ وآخر مندفع.

هنا نتذكر أن المتحفظين كانوا على شيء من الصواب بعد بروز بعض المساوئ السلوكية. أما الجانب الآخر فقد كانوا على قدر من الخطأ. فليس من المنطق أن كل جديد يقابل برفض وبالمقابل ليس من المصلحة أن نبقى حبيسي الماضي والعالم من حولنا يموج بحركة سريعة نحو الرقي ونبقى نحن في محلك رواح. فالأمر لا بد أن يكون محل نظرة موازنة بين المتنازعين بحيث نعي حركة الزمن وفرضياته التجديدية ومصوغاته الحداثية لنأخذ منه ما يناسب هويتنا دون انجراف مع هبوب تيارات التجديد بلا حساب مما ينبغي أن نستوعب ظروف التحولات، لنتعصر مع العصر ونواكب موجات التقدم الحضاري بآلياته وأساليبه لكن عبر عملية تكييف بين المعاصرة والأصالة آخذين من الجديد مفيدة دون إخلال بالثوابت المتأصلة في جوهر ديننا وقيم أخلاقنا.

نعم للتطور ونعم للمتغير لكن بحسبان وفي نطاق الوجدان الشرعي والثقافي، لنبق على شخصيتنا الوطنية بمواءمة وتوءدة. نفتح الأبواب لمحاسن التغيير ونغلقها أمام سيئها أو نهذب ما يمكن تهذيبه منها.

إذًا علينا أن نبتغي بين ذلك سبيلاً توافقيًا. فلا رفض بالمطلق ولا إقبال بالمجمل. ولا. ثم لا. لامتطاء موجة العصرنة على متن صرعة الانبهار بتجديد لم يخضع لتكييف بين قديم وحديث ومواءمة بين أصيل ومعاصر. اندحرت فضائل باتت تئن منها حتى المجتمعات التي منها انبعثت ومن زخمها المعاصر ولدت.

حاضرنا المعاصر يزخر بكثير من المقبلات الحياتية والمشهيات المعيشية، وهي مع كثرتها وتنوع مباهجها تبدو وكأنها منزوعة البركة مع ما لها من بريق يخطف الألباب جعلت اللهث وراءها غاية وليس وسيلة في سباق صراعاتها والدخول في دوامتها. كل يريد أن يصيب أكبر قدر من شأفتها، فكلما زادت سرعة التهافت طاشت التصرفات وعشوائية السلوكيات، لاقتناء ما تفرزه من متع الرفاهية المفرطة والسعي الدءوب للكسب السريع، حولت الحياة طاحونة تطحن البشر تحت رحاها، باتوا في سكرة اللهث صراعًا لاهين تحت وطأة ضجيجها. ارتفعت أسهم الماديات على حساب الروحانيات حتى لا يكاد في بعض الأحيان يُفرق بين ما يجوز وما لا يجوز، اختلط في جعبتها التمييز بين حق مكتسب أو حق مغتصب. وفي دوَّامة التنافس المحموم تشابكت المصالح واستحدثت الطرائق لتلبية المطالب والفوز بالمكاسب تحت أي ظرف وأي وسيلة وأسلوب؛ بغرض تحقيق الغايات.

مما كرَّس مفهوم المنفعة الفردية عنوانه: نفسى نفسى. قلَّصت مبدأ الروح الجماعية تحت وطأة مترادفات الكسب السريع والمصالح الشخصية حتى لو تغمط حق غيرك لا تتمثل بمثل أو تراعى قيمًا. فالهدف الكسب على أى صورة والظفر بأى طريقة وتحت أى صيغة. لا يعنيهم ما يعكسه على الآخر. همهم نفوسهم والوصول إلى مبتغاهم.

كل حى فى عالمنا يرنو إلى التحديث. وتلوى الأعناق نحو وهج الحداثة. فليس من بأس طالما فى حدود المقبول والمندوب. أما أن يكون ديدنه الهوى والسير مع التيارعلى عماها نأخذها على علاتها فهذا مرفوض مرفوض. فما يناسب شعب ليس بالضرورة أن يناسب شعبًا آخر. فما هو فى قوائم الأخلاقيات عند قوم لا يكون كذلك عن قوم آخرين. وما يلائم معسكر هذا لا يلائم معسكر ذاك وما يقبل هناك قد لا يقبل هنا. فالأمم مشارب والشعوب تخالف والبيئات تباين. مما يدعو إلى ضرورة إدراك الأمور بسلامة منطق وانتقاء من الجديد ما ينفعنا واقتباس من مستجدات العصر ما يدخلنا ساحته بشرط أن تأتى وجبة مدروسة على مائدة الموروث والمألوف والدِّين والقيم والعرف. لنقل للآخر: إننا معنيون مثلكم بالعصر ومحدثاته وبالتحضر وآلياته والزمن ومستجداته، لسنا منغلقين ففى ديننا فسحة للجديد. وفى ميداننا مساحة للتحديث وعدم الركود لنتناغم مع شعوب الأرض ولنبنى معهم حضارة العصر.

***

قصص واقعية للتدبر

موقف استفزازى :

قابلت شـخصًا جمعنى به مجلس كان منطويًا على نفسـه يغلب عليه الشـرود الذهنى على عكس عادته. فقد كان من قبل منبسطًا ومبتسمًا فى كثير من أوقاته. يلقى كلامه على عواهنه دون تحفظ متسـرعًا فى أقواله وأحكامه. لا يحسـب حسابًا لتصرفاته إلا هذه المرة لوحـظ عليه اختلاف مزاجه. فاستفسـرت عما طرأ عليه. فقيـل لى: إنه حصل له موقف استفزازى أثار حفيظته وأخرجه عن طوره. إليكم قصته:

هذا الشـخص كان فى مجلس اسـتفزه شخص آخر بكلمات ظنها إهانة فاستثار غضبًا مفتعلاً مشـكلة كرد اعتبار بطريقته فوقع بينهما عراك. فما كان من صاحبنا إلا أن دفعه وركله فى بطنه فوقع الرجل على طاولة سـطحها من رخام مغشيًا عليه حيث ارتطم رأسه بهـا وكان ارتطامًـا قويًا أفقـده وعيه. نقل إلى المستشـفى فجاء التقريـر الطبى بإصابته بارتجـاج فـى المخ. قبض عليـه وأودع التوقيف علـى ذمة التحقيق. وبعـد فترة العلاج تحسنت الحالة الصحية للمصاب متجاوزًا مرحلة الخطر.

شـاهدنا أن صاحبنا المتسـرع أصبح يقال عنه: جانٍ. فمن أورده هذا المورد؟ أليس هو الذى جنى على نفسـه بتسـرعه؟ فأصبح نادمًا على ما جرى يردد الحول والقوة، يقول: يا ليتنى لم أتسرع. فبعد أن شفى المجنى عليه تنازل عن الجانى، وبعد إجراءات قانونية خـرج صاحبنا من السـجن، وقد تعلّم درسًـا بتأثير تلك الحادثـة فأصبح يناصح من على شاكلته.

واقعة سمعتها :

تفكّر فى هذه الحكاية التى يحصل مثلها كثير وربما المسـموع بما يشـابهها أو يماثلها أكثر. كان هناك شـخص مستور الحال. يسكن فى شقة مستأجرة. وعندما ضاق به الحال فعجزعن دفع الإيجار المعلوم فى نهاية كل شهر. خطرت على باله فكرة وهى أن يشترى منزلاً. فطرق البنوك لعله يحصل على تمويل شراء المنزل ويدفع بالقسط من راتبه الشهرى.

فاستجاب لطلبه أحد البنوك بأن يموِّل مشروعه بحسب الأنظمة السائدة. لكن أقصى ما يمكن أن يعطيه البنك لا يتجاوز ثلاثمائة ألف وهو مبلغ لا يكفى لشراء منزل. فيمَّم وجهه تجاه المكاتب العقارية ليجد منزلًا فى حدود هذا المبلغ. فوجد أن أقل الأسعار المعروضة ستمائة ألف أو ما يزيد. ولا حيلة له بدفع المتبقى فشعر وكأنما انسدت أمامه فرصة العمر. فاسودت الحياة فى عينيه، وباءت محاولاته بالفشل فى البحث الدءوب ليجد مبتغاه بالمبلغ الذى حدده البنك ولا يملك دفع الفائض المتبقى. فلجأ لفكرة طرأت عليه، أن يوفر المبلغ بالاقتراض من أقاربه وأصدقائه فحدد أشخاصًا يثق بهم، فطرق أبوابهم واحدًا تلو الآخر شارحًا لهم الموقف الذى هو فيه ويشتكى حاله مع الإيجار الذى أنهكه طيلة سنين مضت، يطلب اقتراض خمسين ألفا من كل واحد؛ لجمع مبلغ ثلاثمائة ألف. إضافة إلى الثلاثمائة الأخرى الذى وعده البنك دون أن يدرس كيفية السداد والجمع بين سدادين من راتبه. ولكون الذين التجأ إليهم أقارب وأصدقاء. فقد جمع منهم المعلوم وقطع على نفسه وعدًا أن يرد إليهم قروضهم خلال ستة أشهر أو أقل. وقد انفرد بكل واحد منهم على حدة دون أن يُعلم الآخر. وبعد أن أودعت فى حسابه وبدأ إجراءات البنك فجأة ارتفعت العقارات فما كان معروضًا بستمائة ألف ارتفع ليصل إلى ثمانمائة ألف أو تزيد فأصبح محتارًا فى وضعه حرجًا. فلم يبادر برد ما بيده إلى مقترضيه بل جمد المبلغ؛ لعله يجد منفذًا لأنها فرصته الأخيرة لامتلاك منزل وشيئًا فشيئًا ارتفعت العقارات، وفى كل مرة يتبدد أمله إلى أن مرت ستة أشهر فاكتشف المقرضون له أنه استدان من كل منهم خمسين ألفا، فتنادوا واستعلموا أمره فصارحهم أنه كان مضطرًا للجوء إلى هذه الحيلة أى إخفاء بعضهم عن بعض، وهنا بدأت حدة المناقشات ليرد عليهم ما اقترض منهم، فاستعد ظاهريًا بذلك لكنه مبيت النية للإبطاء بدفعها متأملًا فى إيجاد بيت، فلجأ إلى المماطلة وإمام هذا الوضع ما كان أمام المقرضين غيرالقيام بمطالبته من خلال القنوات الرسمية، وبعد مرافعات فاحتكموا عليه بأن يعيد المبالغ إلى أصحابها فوجدوا أنه قد صرف منها سبعين ألفًا دفعها كإيجارات متأخرة عليه، فأودع السجن لسداد المبلغ. مثل هذا الحال أليس هو من جر نفسه إلى السجن من الخطوة الأولى الذى احتال على مقترضيه الذين تعاطفوا معه وأرادوا أن ينشلوه من الحيرة التى هو فيها دون أن يعلمهم بحقيقة الأمر ؟ وكأنه اقتاد نفسه إلى السجن؛ لأنه يعلم مسبقًا أنه غيرقادر على الوفاء بسداد الدَّين ولا حتى نصفه أو ربعه.

فهذا ما جناه على نفسه وما جناه عليه أحد. وهكذا تكون نهاية التفكير السقيم الذى بدأ فكرة خيرة وانتهى نتيجة مؤلمة فما أكلفه على ذلك؟ والله لا يكلف نفسًا إلا وسعها. فقد كلف نفسه فوق طاقته فكان إلا أن أدخل بها السجن.

حكاية حدثت :

بعض الناس يتورطون فى عقود ملزمة الأداء قانونًا. وعندما يبدأ بتنفيذ بنود العقد يكتشف أنه لا يقدر على تنفيذه وأنه غبن أو خدع. والسبب أنه لم يقرأ بنود العقد ومداخل معانى مفردات فقراته. وهنا تبدأ مرحلة المنازعات وإيراد التفسيرات والدخول فى مرافعات تحسم القضية فى النهاية بالإلزام بتنفيذ العقد.

مثل هذه القضايا نسمع بها. كثير يقع فى فخها. بعض الذين يجهلون النواحى القانونية وشحيحو الخبرة بملابساتها يغيب عنهم ما يلحقها من تفسيرات وتنويهات وشروحات ومقاصد لفظية ومترادفات دلالية ولفظية ومعانٍ لا يفقهها إلا القليل. يروِّجون لها بزخرف العبارات ويزيِّنون العروض ويدغدغون الرغبات بإظهار المحاسن دون التطرق إلى المساوئ حتى يحصلوا على المراد بتوقيع العقود. لا يدرى بعضهم إن كان فعليًا أو وهميًا أو غير ذات قيمة. فكيف يتورط شخص أو جماعة فى مثل هذه الوقائع التى نسمع بها وتدور ملاحقاتها فى المحاكم؟ ألم توافق ووقعت مختارًا؟ فمن وقع فقد وقع. العقود تحتاج إلى دراسة ودراية. فمن تنقصه الدراية فليسأل فهو ملزم بتوقيعه، فلم يجعل مساحة من التريث ولم يسأل، ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧ ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٧]، أى: أهل الاختصاص.

وإليكم هذه الواقعة. حكى شخص عن صديق له تورَّط فى صفقة وهمية مع بعض من خالطهم خارج بلده يقول:

كان صديقه من أصحاب الأموال جمعها على مدى سنين فى حقل العقار وكان فى رحلة صيفية فى بلد يتنامى اقتصادها. فأشار عليه أحد المرافقين الذين تعرف عليه فى تلك البلد وتبادل معه أحاديث الاستثمار. فعرض عليه أنه يعرف كثيرًا من رجال الأعمال. وأنه يمكن أن يهيئ له الاجتماع معهم؛ لمناقشة مدى إمكانية التعاون المشترك. ويكونوا شراكة استثمارية لتنمية أمواله معهم. الشاهد أن صاحبنا أعجب بالعرض وبدأ رفيقه

يرتب له دعوة لقاء مع أصحاب رؤوس الأموال لاجتماع أولى لتكوين فكرة عن استثماراتهم ومجالات أعمالهم. وبعدها يقرر ما يرى. وفعلاً تم الاجتماع وسمع منهم ما يطمح الوصول إليه ويداعب أحلامه عارضين عليه فرص استثمارية لتوريد معدات وأجهزة إلى بلده، وبعد عدة لقاءات وصنوف من الإغراءات اتفق الجماعة على أن يكونوا شركة برأس مال تدفع مناصفة، وأخذوه إلى مواقع شركات ومقار مبيعات لتلك المعدات والأجهزة واتفقوا على أن يقوموا هم بترتيبات الترويج والدعاية والإعلان وإجراءات التوريد والتوزيع وأبرموا عقد الشركة. دفع صاحبنا نصف قيمة رأس المال وتم استكمال إجراءات توثيقه القانونية، دلف راجعًا إلى بلده تراوده آمال وتحدوه تطلعات، وكان ضمن الاتفاق أن يقوم الشركاء بزيارته فى بلده لدراسة السوق، عاد إلى بلده ظافرًا بحلم العمر. انتظر وصولهم شهرًا وشهرين فلم يزره أحد. فقام بالاتصال بهم فكان ردهم أن هناك بعض الالتزامات الشخصية أخَّرت سفرهم، وتوالت الاعتذارات إلى أن مرَّت ستة أشهر، حيث بدأت تساوره بعض الشكوك فجمع حقائبه مسافرًا إلى ذلك البلد وأراد مفاجأتهم فى نفس تلك المقار التى أطلعوه عليها، وكانت المفاجأة أن وجد فيها وجوهًا غير تلك التى شاهدها ولم يجد ما يدل على شركة أو مظاهر استثمار فيها، فظل يسأل عن فلان فلا يجد من يعرفه أو علان لا يجد من يعلم عنه. واكتشف أن تلك المقار لم تمت لهم بصلة، وقام بالبحث عن رفيقه الذى أشار عليه بالفكرة فلم يعثر له على أثر، عندها لجأ لسفارة بلده الذين تحركوا لدى الجهات الرسمية فلم يجدوا أن هناك شركة بهذا الاسم، وأن المحلات التى أطلعوه عليها كانت لأصحابها بل أنكر هؤلاء معرفتهم بأى شخص ممن وقعوا العقد معه، واتضح فيما بعد أن المبلغ الذى دفعه قد استغل فى صفقات تهريب ممنوعات، ولم يقف الأمرعند هذا فقد كان أحد المطلوبين على ذمة القضية المنظورة فى تلك البلد كمول.

مثل هذه الواقعة ينظرإليها فى عداد السذاجة أو الاستغفال أو اللهث وراء الكسب السريع. أين توقعهم فى النهاية ؟ أليس إلى السجن ؟

قصة وقعت :

يروى أحدهم قائلاً: كنت فى بلد أقضى فيه إجازة صيفية، سمعت لغطًا قويًا عند باب المسجد القريب من منزلى وأنا نازل أصلى العصر، فإذا بمجموعة من الناس يرددون الحول

والقـوة فهذا يتأوه وآخر يتأفف وثالث يسـتنكر ورابع يتوعد وخامس يشـجب ومن يلقى بالمسـئولية على السـلطات. وأحاديث كثيرة ملتهبة ومتأثرة حتى هذه اللحظة وأنا لا أعلم أصـل القضية ولكنى أشـاهد هرجًا ومرجًا يخوض فيه المتواجـدون فى المكان ويموج فيهم الوافـدون إليه. وأقيمت الصلاة فدخلت لأصلي. وبعد أدائها خرجنا وأداء المشـهد يتكرر ومجاميـع الناس تتجمع. يـرددون نفس العبارات المتأثرة والكلمات الغاضبة والمتأسـفة. اقتربت من أحدهم وسألته عما يدور فقال: مصيبة راح ضحيتها صاحب هذا الدكان وأشار إليه. فنظرت فرأيت وقد أحيط بحراسة وبدأت إجراءات جنائية .استفسرت عن القضية. فرويـت لى بطريقـة درامية متأثرة بواقعة ما زالت ماثلة. حادثة ما كان لها أن تقع. لو أن فاعلها تأنَّى قليلاً وبقدر يسـير من رابطة الجأش. لكان وفَّر البؤس والتعاسـة على نفسـه وعلى من يعول.

وصف الواقعة :

على ناصية الشارع الفرعى من الطريق الرئيسى يقع دكان صغير يبيع لأهل الحى بعض مستلزماتهم الأولية. أتى شخص يشترى بعض متطلباته فلم يجد صاحب الدكان. فحدثته نفسـه أن يأخذ ما يمكن أن يأخذه فإن صادفه أحد تعذر أنه مسـتعجل فأخذ مسـتلزماته ثـم يعـرج مرة أخرى لدفع نقودها لصاحب الدكان. وبينمـا هو خارج يترقب وبيده كيس فاجأه صاحب الدكان. معاتبًا بصيحة: كيف لك أن تدخل دكانى وأنا عنه غائب؟! وتلفظ بعبـارات مثل: هذه قلة حياء، لصوصية، سـرقة... إلخ. أثـارت أعصاب الرجل فبدت بينهما ملاسـنة، امتـدت ملاطمة فمدافعة، التفت حوله فوجـد قضيبًا حديديًّا على باب الدكان فتناوله وضرب صاحب الدكان على رأسـه فشـجَّه شجة غائرة نزفت نزفًا شديدًا. لفـت المشـهد نظر المارة فتسـارعوا مهرولين إلى الدكان فوجدوا صاحبـه قد فارق الحياة. أما غريمـه فقد لاذ بالفرار. وهكذا بدأ مرحلة عذاب من تلك اللحظة لو تصورناها بالترتيب فهى حاله تسـرع ثم هروب مشـرود. تفكير يتملكه خوف وهلع ثم محاولة التوارى عن الأنظار إلى ماذا سينتهى به الحال. جناية جناها بنفسه. فمن وضعه فى هذه الشقاوة؟ ومن أدخله فى عداد المجرمين؟ ما وضع أهله. وعياله، وأمه وأبيه، وأصاحبه وذويه؟ أسـئلة سـتتوارد فى ذهنه: لماذا كان هذا ؟ ماذا فعلت بالرجل؟ وهل الموقف كان يسـتحق هذا؟

ماذا لو اعتذرت لصاحب الدكان وتسامحت منه؟ يعود إلى نفسه قائلًا: كل هذه الأسئلة لا طائل منها ولا إجابة عليها.

الحقيقة الماثلة أننى مطالب بدم الرجل، مهما هربت ونأيت وابتعدت فأنا مذنب. سؤال واحد فقط لو سأل نفسه وهو يتشاجرمع صاحب الدكان وعندما لاح أمامه قضيب الحديد. هل الموقف يستحق أن استعمله ضد إنسان وهو يعلم أنه قد يصيب موضعًا قاتلاً أومحدثًا جرحًا فارضًا ؟ لو سأل نفسه وتعوَّذ من إبليس لما ارتكب جناية .فبين التسرع والتريث لحظة لائحة فاصلة بين الإقدام على الجناية وعدمها. فما بال الكثير يقع فى عتمة هذه اللحظة لتبدأ رحلة محاسبة كان فى حل منها لأعفى نفسه من المتاعب؟!

مشاجرات مفاجئة :

كثير ما تنشب شجارات فردية بسبب سوء فهم أو تفسيرات خاطئة أو خلاف ما فى وجهة نظر أو حركات تصدر من شخص يظنها آخر أنها موجّه ضده معتقدًا أنها تنتقص من شخصه أو تنال من آدميته، فيها إهانة له، حيث يقابلها بفعل مضاد غاضب بمثلها أو أكبر منها، ما تلبث فى بعض الأحيان أن يتسع نطاقها متحولة من حالة فردية إلى جماعية، حيث يتنادى الصحاب ويتكتل الرفاق والمناصرون ومن يلتف حولهم بمنطق التعاطف والمناصرة. بعض منهم قد لا يعلم ما طبيعة المشكلة وأسبابها الرئيسية، ليس له فيها ناقة ولا جمل، فقط دخل العجة مع العاجين بدعوى الفزعة أو نشوة النخوة: من أجل نصرة صديق أو قريب بنظرة قاصرة وفورة فتوه وتفريغ شحنة شبابية فى غيرموضعها ليس لها ما يبررها.

وعندما ينظر فى صلب المشكلة بعد التورط فيها يجد أنها لا ترقى لمستوى المشاجرة أوالمخاصمة التى تصاعدت حتى وصلت إلى مصادمات ومضاربات متعدية، فربما كان السبب الذى أدى إلى المشاجرة بسيط والنتيجة فادحة متجاوزة حد الخصومة باستخدام أدوات حادة أو سلاح نارى أو هراوات وعصا غليظة توجه ضربات فى مفصل أو تعطل حاسة أو شج رأس أو ضربات عشوائية ينتج عنها جروح غائرة أو نزيف حاد ثمنها باهض لا يساوى سببها، تدخل صاحبها فى مساءلة جنائية وربما قصاص كان فى غنى عنها لو كان مدركًا لنتائجها قبل ولوجها وما ستجره عليه من تبعات جزائية. لو وضع فى

اعتباره هذا قبل أن يركب موجة طيشه وانفلات أعصابه وتشنجاته.

كثيرممن يقعون فى مثل تلك المواقف يرجعون إلى نفسهم أسفين، فما ينفع الأسف بعد أن وقع فى الورطة التى جرها على نفسه ؟ ولى فى هذا مشهد حي:

كنت شاهدًا على موقف مشاجرة بين سيارتين يقودها شابان متقاربان فى العمر فى العشرين أو ما حولها. كان أحدهما يسير على يسار الطريق والآخر خلفه مسرعًا يرسل إشارات ضوئية ويطلق صوت المنبه بصورة مزعجة ليفتح له الطريق. وكنت فى منتصف الطريق فى محاذاة السيارة الأولى إلا شيئًا قليلًا. ولعل الأول لم ينتبه للنور الذى خلفه وربما لم يسمع صوت المنبه فما كان من سائق السيارة الخلفية إلا انحرف إلى اليمين باتجاهى حيث فسحت له الطريق ليمر بعد أن أدركت أنه فى عجلة من أمره. فما كان من حادى السيارة الأخرى إلا أن أخرج رأسه قليلاً يلوح بحركات متشنجة ويدفع يده فى إشارة تهديد ووعيد، فتبادل الاثنان الإشارات. بيد أن أحدهما قال للآخر: قف على جانب الطريق لنتفاهم شاهدنا أن السيارتين وقفتا على جنب كل خلف الأخرى. نزل البطلان ووقفت أنا على بعد منهما لأرقب الموقف. بدأت بينهما ملاسنة ثم تطورت إلى شجار صاخب ثم مدافعة بالأيدى، فنزلت من السيارة لأتدخل لفك الاشتباك ولكن كانت حالة الشجار قد بلغت مبلغها من الاثنين فضرب أحدهما الآخر وراح مسرعًا إلى سيارته متناولاً هراوة بينما الثانى أخذ من درج سيارته مطواة حادة فضرب صاحب الهراوة ضربة تلقاها ذلك بيده ثم عاجله بطعنة بالمطواة أتت فى الحلق أقرب إلى التروقة تدفق الدم بغزارة. هكذا نشبت مشكلة وتسلسلت مجرياتها نقل المصاب إلى المستشفى وجرى التحفظ على الطرف الثانى.

فانظر كيف تحوَّل المشهد المروى على الطريق من حالة استثارة بسيطة فمبضاربة فجناية. شاهدنا فى الموضوع أن المسألة ما كانت يجب أن تصل إلى ما وصلت إليه.

وعلى مثل هذا تحصل كثير من المشادات والمخاصمات والمضاربات، تبدأ صغيرة ثم تكبر، يتصاعد دخانها. فالنار من مستصغر الشرر.

يتشنج فيها طرف يقابله طرف آخر بمثله ليلتهب الموقف بينهما فيقع الاثنان ضحية تشنجهما بينما الأمر بسيط لا يستحق كل ذلك.

وإذا كانت بعض المشاجرات بين الشباب خاصة المراهقين لا تعتبر مشكلة فى حد ذاتها إلا أنها تعظم فى عين القاصرين عمرًا وإدراكًا. فبمجرد حصول موقف فيه شىء من

الحدة لا يراها الكبار حدة ولا يستحق التوقف عندها نرى الشباب بطبعهم المشحون بالحدة والتسرع يعتبرها كذلك.

فما أن يقع أدنى احتكاك فهو بمثابة شـرارة توقد نار الشـجار. فيبدأ هذا يتحفز ضد هـذا، وذاك يتأهب لرد التصرف بتصرف والحركة بالحركة. (يصفها الكبار عادة بقولهم: حـركات صبيانيـة). هذه الحركات بـدأت تتكاثر فى الآونة الأخـيرة. فهى وإن لم تكن بارزة بشـكل واضح الآن إلا أن تزايدها يتراكم. قد تصل إلى حد الظاهرة يصعب علاجها. مما يوجب أن يعمل على تطويع المشكلة بتعاون بين البيت والمدرسة والمسجد والجامع فى الأحياء؛ لإيضاح مضارها وشـرح أسـبابها وما يترتب عليها من مخاطر وإضرار لبثّ روح التآخى والتسـامح ورفع شـعار: أنت أخى وأنا أخوك. سـامحنى وأسامحك. اعفُ عنى وأعفـو عنـك، تغاضَ عنى لأتغاضى عنك، لا تكن لى ضغينـة لأقابلها بمثلها. فالضغائن محرقة القلوب ومجيشة الأفئدة مفسدة العلاقات ومسببة عداوات.

فلا يتربص أحد بأحد؛ نتيجة سوء فهم أو تفسيرات خاطئة وأحكام متعجلة أو عجلة قرار واتخاذ خطوة شجار مع شخص لمجرد ظن سوء الفهم.

إذا كانت بعض المشاجرات لا تعتبر مشكلة فى حد ذاتها إلا أنها تكبر فى نظر القاصرين عمرًا وإدراكًا، وبتكرارها تتراكم، تشحن النفوس بشيء من شعورالخصومة من شخص تجاه آخر مما يجعل أدنى احتكاك مرشـّحا لتوليد شـرارة لشـب الشجارمما يتطلب أن تتدخل الجهات التربوية والعائلية؛ لكبح هذه الحالات، يتعاون فيها البيت والمدرسة.

***

بعض العلاقات وبال

أولًا: علاقات الصدف :

بعض الصداقات قد تجر إلى سوء. فهذا شخص ألقته الصدفة بشلة لا يعرفهم بدعوة من أحد معارفه معرفة سطحية لشرب الشاى وبعض المرطبات فلبى الدعوة. وبعد مدة تكررت المصادفة فى طريق مروره فدعاه مرة أخرى لمشاركته تلبية مناسبة عشاء عند شخص فاعتذر. وبعد فترة ليست بالطويلة قابله فى الحى الذى يقطنه فوجه له دعوة لسهرة بريئة ليلة خميس. وفى أثناء انتظار تجمع الشلة طلب أحدهم أن يلعب معهم لعبة الورق وكان لا يجيد اللعبة. فشجعه ليتدرب مثله مثل غيره من بعض الحضور. وفى أثناء اللعبة توافد الجمع وتحلقوا فإذا بالوضع يختلف، إذ تحولت اللعبة إلى مراهنات مالية – أى لعب قمار – ثم بعد قليل أحضرت زجاجات من الخمر وبدأت الرشفات. بدا صاحبنا فى ذهول مما يرى. فانزوى منفردًا بمن دعاه يعاتبه و يسأله: أهكذا جميعهم؟ وعلى مثل هذه المحرمات تجمعكم؟ حاول أن يقنعه أن الأمر حرية فردية فلا أحد يغصب أحدًا. وكانوا يتضاحكون ويتغامزون عليه بأنه معقَّد. فجاءه أحدهم يقول له: جرب وذق مجرد رشفة فقط. وإذا لم تعجبك فما أنت مغصوب والأمر إليك.

هنا بدأت يتردد فى داخله سؤال: لماذا لا أجرب وهكذا اقترب من التجربة متخوفًا. وبينما يعيش مخاض جرِّب أو لا تجرِّب يأتيه من يضرب الضربة القاضية ويحسم التردد لصالح جرِّب قائلاً: عش لحظتك وتمتع، فلست أول الناس ولا آخرهم – وصبّ له مقدارًا ضئيلاً من المسكر وكرَّرعليه – جرِّب والخيار لك. وقال له آخر: مبدأ المجالسة الموافقة.

وتحت إلحاح وضغط جماعى قبل العرض ورشف رشفته الأولى؛ لتطييب الخواطر. صفقوا له مشجعين ومباركين شجاعته وخروجه من موقع الانزوائية إلى رحابهم مهونين الموقف فصبَّ له مرة أخرى. فلثمه وقالوا له ناصحين: هذا يكفى من أجل إضفاء جوٍّ من الأنس على الجلسة أنت بطلها اليوم. وقليلاً قليلاً استهواه الشرب وكسر حاجز الخوف وتعود على مشاركتهم. وتدور الأيام من خميس إلى خميس. حيث اقترح أحدهم أن تكون

السهرة فى الخميس القادم فى الاستراحة الواقعة فى إحدى الضواحى، وكان خميس شؤم؛ للاستمتاع بضوء القمر الذى يأتى ليلتها بدرًا فى كامل استدارته، ودارت الكؤوس فترنَّح بعضهم انتشاء، ومع زيادة الجرعات دخل اثنان منهم فى نقاش حتى وصل بهم الأمر إلى أن زادت حدته وبدت عليهما ملامح الخروج عن طورهما إلى أن تعالت الصيحات فوصلت إلى قيام خصومة وتطورت إلى التشابك بالأيدى، فتحوَّل حال الحميمية إلى عدوانية خارجة عن نطاقها تحت تأثير السكر، مما استدعى تدخل السلطة لاقتيادهم جميعًا إلى قسم الشرطة، عندها طارت السكرة وجاءت الفكرة بدأوا يلومون بعضهم بعضًا، وبدت على صاحبنا دهشة يحدِّث نفسه: لقد كان تردُّدى فى محله، لقد أغوانى فلان وشجعنى علان، يا ليتنى لم أطاوعهم. فهيهات فقد وقعت.

فإياك من صدف التعارف مع من لا تعرف طبعه وما ينطوى عليه وضعه، فقد تجلب وبالاً تتجرع هوانه.

ثانيًا: المخالطة:

من الناس من ينفتح على الآخرين ويخالطهم دون تحفظ قبل أن يعرف على أى شاكلة هم. فلا بأس من التعارف فالإنسان اجتماعى بطبعه لكن ذلك ينطق على المخالطة الرشيدة التى تقرِّب الإنسان من أخيه الإنسان، فالمخالطة فيما سمعته من أحاديث الشيخ الشعراوى – رحمه الله – على أربعة أنواع:

- ناس كالغذاء لا تستغنى عن مخالطتهم.
- ناس كالدواء لا تخالطه إلا عند الحاجة.
- ناس كالداء لا تتمناه ولكن تضطر له.
- ناس كالسم يصيبك دون أن تعلم.

ونضيف على قول شيخنا أنه يمكن تشبيه المخالطة إجمالاً بشرائح التلفون النقال، فهناك شريحة مفوترة تحمل اسم مستخدمها تحتاج إليها بالضرورة ولا تستغنى عنها. وشريحة مؤقتة تستخدمها لفترة معينة ثم تلغيها عند انتهاء الغرض منها.

هكذا مخالطة الآخرين: منهمْ من يأسرك بأدبه وعلمه وحسن خلقه، تأنس إليه وتحرص على ملازمته، ومنهم من تخالطه مخالطة عابرة تجمعك به ظروف تعامليه،

لا تشعر بالاستئناس إليه أو الارتياح إلى أسلوبه وقوله وعمله. فتجمد مخالطته خاصة إذا زالت الأسباب التى أدت إلى تلك المخالطة كأن يكون ظرفًا عابرًا. لكن بالمجمل بعض المخالطات قد تجر إلى مخالطة سيئين يشقى بهم حال مخالطهم، كأن يكونوا منتفعين أو ذوى شر... إلخ.

ثالثًا: الاتباع العشوائى :

يروى شخص مقيم ملتزم قابلته فى بلده التى كنت فى زيارة لها. قال متحسرًا: إنه تعرَّف على شخص آخر من جنسيته يعملان فى المملكة، فقامت بينهم زيارات متبادلة كانا يلتقيان فى أوقات فراغهما. وفى إحدى زياراته دعاه لأن يصحبه لحضور حفلة عيد ميلاد شخص ثالث من جنسيتهم، فلبى دعوته إلى بيت ذلك الرجل وانضم إليهم آخرون يحملون بعض الهدايا بمناسبة عيد ميلاد صاحب البيت منهم ثلاث فتيات (لم يحدد جنسياتهن). ثم أحضر الطعام الذى يبدو أنه كان معدًّا سلفًا فى أحد المطاعم، وفى ساعة الصفر أى الثانية عشرة ليلاً أطفئت الأنوار فى الغرفة التى يجلسون وأشعلوا الشموع وبدأوا ينشدون الأنشودة المشهورة ويتمايلون على بعضهم Happy birth day to you، ثم أطفأ صاحبنا شعلات الشموع ووزعت قطع الكيك والحلوى مع بعض العصائر، وبدأ يتلقى التهنئة بعامه الجديد على أنغام الأنشودة ذاتها. يقول: شعرت بالضيق من هذا الأسلوب غير المنضبط، ثم قلت فى نفسى: إذا كان هذا أول السهرة فما عسى أن يكون تاليها؟ ونويت أن انسحب إلا أن صديقى قال: اجلس يا أخى ليس بالضرورة أن تفعل ما يفعلون، وتحت ضغط الخجل والمجاملة بقيت على مضض وكبتُّ أعصابى مما أرى من ضحكات صاخبة، وزاد الطين بلة أنه بعد قليل أحضرت زجاجات الشراب وجرعات الكؤوس، عندها قررت ألا أستمر. وفيما أنا أهمُّ بالخروج. إذا البيت يداهم، فاقتيد الجميع فى حالة سكر وخلوة غير شرعية وهما حالتان محرمة شرعًا فى هذا البلد. فكان ذلك جزاء المجاملة وعدم اتخاذ قرار الانسحاب فى الوقت المناسب، فكان نتيجتها أن أبعدت من البلد بسبب الصحبة المشبوهة حُرِمْت بها مصدر رزقى.

رابعًا: تأثير الصحاب والاقتباس من الأصدقاء :

ليس خافيًا ما للصحاب والرفاق من تأثير قوى على بعضهم، ولقد اتضح ذلك من بعض الشباب الذين تورطوا باكتساب عادات سيئة بسبب رفقة السوء، كانوا ميالين إلى

تقليد رفاقهم ومجاراة أصحابهم ومحاكاة أفعالهم خاصة من هم على مشارف المراهقة الذين يغشاهم الشعور بالاستقلالية الذاتية.

ولا شك أن أثرًا تراكميًا متدرجًا ينشأ بالملازمة دون أن يشعر بها المتأثر بها، بينما المؤثر يلحظها فيكثف من جرعتها لزيادة تأثيرها أكثر. هذه حقائق لا بد أن تصل إلى أذهان الشباب؛ ليعوها كى لا يكونوا فريسة للمفسدين والضالين الذين يغرِّرون بهم مستفيدين من قلة خبراتهم وشح تجاربهم، مستغلين اندفاعهم الشبابى دون أن يعلموا أنهم ينخرطون فى طريقهم بلا وعى، يحرفونهم إلى ما لا تؤمن عواقبه.

إن أخطر ما يواجه الفتيان والفتيات الصحبة السيئة، فالحديث يقول: (**الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ**). (الترمذى وأبو داود). وعلى هذا يمكن تصنيف الأصدقاء إلى ثلاثة:

١ – الصديق المخلص الذى يصدقك القول ويخلص معك العمل ويرسو بك إلى مواطن الصلاح، تلقاه حولك فى الشدة ويبتعد بنفسه وبصديقه عن مواضع الزلل ومواطن الانحراف.

٢ – الصديق السوء الذى يتظاهر بالإخلاص وليس بمخلص ولن تجده حولك إذا ألمت بك ملمات إن ضاقت بك أحوال، يتبرأ من صداقتك عند أول نائبة أو جائحة أو مأزق. وهو ما يصدق عليه قول الشاعر:

ما أكثر الأصحاب حين تعدهم وهم عند النائبات قليل

وقيل فيما قيل: صديقك من صَدَقك لا من صدَّقك.

يدخل هذا النمط من العلاقات الجلساء وهم نوعية تشبه الصحبة والصداقة مع فارق بسيط فى الشكل، فالجليس ليس بالضرورة أن يكون صاحبًا أو صديقًا، ويغلب على المجالسة أنها حولية أسبوعية أو شهرية أو سنوية أو هى نصفية تلك المدد، موقوتة بظرفها.

المجالسة شكل من أشكال المخالطة يكتسب الجليس فيها نصيب من توجه الجلساء، أى تعود على مجالسة أهل الصلاح والتقوى الملازمين لطاعة الله الوجلة قلوبهم لذكره سرًا وعلانية بكرة وأصيلاً، يتحرون حسن المعاملة والخلق الحسن. هؤلاء من يحرص المرء على مجالستهم والقرب منهم؛ لأن فى مجالستهم خير وفلاح حيث إن مجلسهم معطر بذكر

الحكيم، مبارك بترديد أسمائه وصفاته. على العكس منهم جلساء السوء ذوو السمعة السيئة والتعاملات المشبوهة الذين لا يتورعون عن مقارفة الخبائث والذكر السيئ، لا يعيرون الأوامر والنواهى أى اعتبار. والإنسان كما نوهنا مؤثر ومتأثر، فالجليس قطعًا سوف يتأثر بتوجيه من يجالسه صلاحًا وفلاحًا أو فسادًا وخبثًا.

وقد وصف نبى الهدى الجليس وصفًا دقيقًا وشرح حالته تشريحًا مبينًا كيف يصيب الجليس جليسه على حسب حاله، يقول الحديث: **(إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَجَلِيسِ السُّوءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يَحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يَحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً)** (رواه مسلم).

فعلى الإنسان أن يختار الجليس الورع الذى حسن عمله وتزكى خلقه لتنهل مناهل التقوى، ويتجنب جليس السوء الذى ساء عمله وتردى خلقه الذى تقتبس منه سيئات الأخلاق وانحراف القوام.

هناك من نال منه حب الذات منالاً كبيرًا لا يفكر إلا فى نفسه ولا يرى إلا مصلحته لا يبالى بغيره. مثل هذا كيف يركن المرء إليه أو يثق فى صحبته؟ وبعضهم الآخر شغوف بكشف العورات وتصيد الأخطاء حتى العفوى منها. لا تقع أعينهم إلا صوب العيوب يظنون بالناس ظن السوء، نصبوا أنفسهم أوصياء على عباد الله. يتحرون الزلات والسقطات، يسلطون عليها تركيزهم، لا يلتمسون أعذارًا لعفوية التصرفات والأخطاء البريئة أو ما كان فى عداد اللمم ما يصيب بالإحباط أسفًا على مخالطتهم.

وعلى شاكلة أولئك ذوو الوجهين، منتفعون يظهرون بوجه لن ينتفعون منه، ويستديرونه بوجه آخر, فأى ثقة توليها لمثل هؤلاء؟!

وقد تجد شخصًا يجيد تلميح ذاته وله قدرة على تلوين نفسه، يكيفها حسب الظروف والمواقف، يظهر أمامك بأنه شخص سوى مستقيم إلى أبعد درجات الاستقامة، مثالى إلى أقصى مراتب المثالية، لا تنزل بساحته الفساسف، يبهر الناس بحسن منطقه، يتقمص الفضيلة فى الظاهر ويمارس الرذيلة فى الخفاء؛ من أجل استمالة الناس إليه إعجابًا به، والإعجاب أول مراحل المحبة فإذا أحببته كان مثلك، فإن وضعته موضع المثالية فقد نجح فى التغرير بك. هكذا يقع بعض الشباب والشابات فى طريق الإغواء.

وهناك شخص يتمتع بجاذبية أو ما اصطلح عليه فى وقتنا الحاضر بـ (كارزما) (وسامة وحسن مظهر ولباقة) شخصية مقبولة لها قوة تأثير يقبل عليه بعضهم دون تحفظ فيقعون فى مغالطاته دون علم بحيثيات نواياه.

خامسًا: حسن النية :

من الخصال المحمودة، لكنها ليست دائمًا مأمونة الجانب. فحسن النية من جانبك قد لا يقابلها حسن نية من طرف آخر، فبعض سيئى النية يتربصون بحسنى النية؛ ليوقعوهم فى شباكهم يتورطون بحسن نياتهم. وسوف نسوق هذه الحادثة:

فهذا شخص قابلته فى إحدى الدول فى إجازة صيف وكان لسوء حظه أنها كانت أول سفرة له إلى خارج بلده وقع فى حيلة يقول: بينما كان جالسًا فى بهو الفندق قصده شخص يظهرمن ملامحه أنهَ من بنى جلدته، فسلم عليه وصرف له مكاييل من الود مما جعله يطمئن إليه، كان يبدو عليه القلق والتململ فسأله صاحبنا: خير إن شاء الله! ما لى أراك مهمومًا ؟!

فقال: خليها على الله يا رجل.

فرد عليه: وانعم بالله، بحسن نية، وألح عليه أن يفصح له. عندها استوى على الأريكة وبدأ يسرد قصة ملخصها: أنه أتى إلى هذه البلاد ومعه من المال ما يكفيه، وذات ليلة تعرضت له عصابة واستولت على كل ما يملك، وهو الآن لا يريد شيئًا سوى قيمة تذكرة العودة. تعاطف معه صاحبنا وقال له: الأمر بسيط قم معى إلى الغرفة، فقال متظاهرًا بالاستحياء: لا أريد أن أكلف عليك لكنه بحسن نية أصر أن يصحبه إلى غرفته، (طبعًا التعاطف وارد. أليس هو ابن جلدته وابن بيئته؟ فلابد أن يفزع له) صعدا معًا المصعد، فجأة صعد معهما اثنان لا يدرى من أين أتيا. فابتسم أحدهم لهذا الشخص مناديًا: فلان كيف حالك ؟ سامحنا ما عرفناك، إلى أين ذاهب؟

قال: مع الأخ وأشار إليه. فلما توقف المصعد نزلوا.

قال: انتظرونى سأعود إليكم، لكن صاحبنا المضيف. عز عليه أن ينتظروا فى ردهة الممر فى «السيب» فقال: لا بل تفضلوا. تظاهروا بالتلكؤ خجلًا ثم دخلوا مبيتين سوء النية، تناول حقيبته لإعطاء ما وعد به. فإذا بهم ينقضون عليه خاطفين الحقيبة بما فيها من نقود

ووثائق وجواز سفره وأوراق ثبوتية لمعاملات خاصة ودفتر شيكات. وولى الثلاثة مستقلين المصعد فارين خارج الفندق. صاحبنا تمالك نفسه فسارع إلى قسم الاستقبال ولكن هيهات وكأن سيارة كانت تنتظرهم عند بوابة الفندق ولم يعثر لهم على أثر. مثل هذه وغيرها تعرَّض لها كثيرون بحسن النية.

سادسًا: التغرير والحيل

كم من شخص يبحث عن عمل شريف قد يطول به البحث فيتسلل إليه اليأس! فهذا شخص قابله صديق له أخبره أنه وجد له فرصة عمل. رد عليه فرحًا: الله يجزيك خيرًا، أين وكيف؟

قال: هناك شركة توزيع أدوية توزع بضاعتها ليلاً تحتاج إلى موزِّع. ودون تردد وافق الشاب فورًا. فاقتاده معه إلى مقر الشركة. قابل المسؤول عن التوزيع وشرح له مهمته مقابل مبلغ من المال لا بأس به، وسرعان ما سلموه سيارة صغيرة وقالوا له: هل أنت جاهز؟

قال: نعم.

كان الشاب مستغربًا من سرعة الاتفاق وتحديد الراتب وبدء العمل كله فى غضون وقت لم يتجاوز ساعة من الزمن، والأغرب أنه لم يوقع عقدا بينه وبين الشركة. لكنه كان واثقًا من صاحبه الذى يبدو أنه صديق لمدير التوزيع. خلال تلك الأثناء كانت السيارة تجهز ببضاعة مغلفة لا يعرف عنها شيئًا وأعطوه قائمة بأسماء وعناوين، فسار صاحبنا مسرعًا فرحًا فهى فرصة لإثبات الذات. هذه الشركة لسوء حظه كانت تحت المراقبة للاشتباه ببضاعتها وعند أول عنوان وصل إليها صاحبنا داهمته السلطات متلبِّسًا بجرم تسليم مواد محظورة فراح ضحية تغرير صديقه.

ولذلك نقول ونكرر القول: إن على الإنسان أن يكون يقظًا وأن يتفحص وضعه حيث كان أمامه عدة مؤشرات لو فتح عينه عليها كان يستلزم الوقوف عندها. أولها: سرعة موافقة الشركة عليه. والثانى: بدء العمل الفورى، والأهم من ذلك أن العمل تمَّ دون إبرام عقد بينه كعامل والشركة كصاحب عمل.

فلا ينبغى أن ينام الإنسان فى غفلته يغرر به الآخرون ويقع فى مصائد الآخرين. يقدمونه طعمًا لأعمالهم المنكرة. فمن البديهيات أن يتفحص الإنسان الأشياء التى يزاولها ويعرف طبيعتها ليحفظ لنفسه خط رجعة قبل أن تغلق عليه مغاليقها ويورط فيها فتسلمه خلف أبواب السجون.

وإليك قصة أخرى :

يقول شاب فى الثانوية العامة : إنه بعد الانتهاء من امتحان الفصل الأول كان يستعد للسفر إلى مسقط رأسه عند أهل والده؛ ليقضى عندهم بعض الوقت من العطلة. وبينما هو فى طريقه قابل أحد زملائه فى المدرسة، سأله : إلى أين أنت ذاهب؟

قال : إلى السوق؛ لأتبضع بعض اللوازم للسفر غدًا.

قال : ما دام أنت مسافر غدًا فما رأيك نشرب الشاى سويًا فالبيت قريب؟

تردد الشاب قليلاً وتحت إلحاح وشىء من الكلمات مثل : لماذا أنت متردد ؟ ولماذا خائف؟ ومن؟ ماذا؟ يا أخى، نحن زملاء فى مدرسة واحدة، ترى معرفة الرجال مكسب. وافق على الذهاب معه. دخل ملحق البيت وكان هناك مجموعة فى سن عمره يتجاذبون الحديث حول المدرسة والاختبارات ونتائجها حتى قبيل صلاة العصر فنظر إلى ساعته وهمَّ بالاستئذان للخروج فلم يسمحوا له وطلبوا منه مشاركتهم مناسبة الغداء. وبعد الغداء نهض للصلاة لوحده ولم يلاحظ همة من الباقين؛ لأنهم تحلقوا حول بعضهم يدخنون السجائر واقترب زميله منه ناوله سيجارة فاعتذر لكنه ألح عليه قائلاً : جرِّب مجرَّد محاولة. هى أصلها دخان طائر مع الهوى. المهم رضخ صاحبنا وولع سيجارة وشفط شفطة ثم أتبعها بثانية فانتابه سعال وبعد فترة عاودوا الكرة فى الإلحاح عليه. حتى أصبح من المدخنين، ثم تطور الوضع إلى أن أصبح يمزجها بحشيش وابتدأ مشوار المخدرات، ولكى يوفر مصروفها راح يفكر بطرق وأساليب لتوفير المال. فلم يكن أمامه سوى السرقة من أهله ثم امتد الوضع إلى أن انضم إلى مجموعة نشَّالين كانوا تحت النظر والمراقبة فقبض عليهم فكانت السجارة هى من قادته إلى السجن.

سابعًا: خطوط حمراء :

إن أى تصرف إنسانى لممارسة النشاطات الحياتية وشئونها المعاشية تنظمه قوانين وتشريعات تضبط حركة الحياة؛ لحمايتها من المفترين على منظومة الحياة؛ حفظًا للحقوق وصيانة للواجبات؛ كى لا يطغى حق على حق أو تنتهك حرمات فى مجملها ضبط التعاملات الأخلاقية بين الناس وتنظيم أساليب العيش، تلك ثوابت لا يجوزالاعتداء عليها، فمن اعتدى يستحق الجزاء العقابى لقاء خروجه عن الخطوط المرسومة والتعاليم المنظومة؛ حرصًا على سلامة الأمة، مما يقوض عيشها أو يزعزع استقرارها؛ كى لا تفسد

حياة الناس ويستشرى بينها الفساد وتسود الجريمة وتتفاقم الانحرافات وتسوء الأخلاقيات وتنعدم القيم تنتشر فى مسارها الشرور واتباع الشهوات.

لذلك كانت القوانين والأنظمة محك الانضباط وعلاج ردع لمن يعبث بالأمان؛ صونًا للحرمات وتأمين المصالح والقيم والمبادئ وضبط السلوكيات من الأهواء والتلاعبات وتكريسًا لمفهوم الانضباط العام وحمايته من الخلل. فمن لم يلتزم بتلك الضوابط ويقفز فوق موانعها متحايلًا عليها فهو خروج عن السوية، وهذا يعنى تجاوز الخطوط الحمراء. فمجرد التفكير فيها يعتبر خطوة إلى السجن. والرسالة التى نود إيصالها إلى من يفكر بزلّة فليعلم أن عقابه ملاقيه. فاحسب لنفسك ألف حساب واحفظ لها احترامها ولا تنهكها برخيص، وكأنما تقيم معركة صراع بينك وبين مجتمعك الذى تنتهك حرمته على غير وجه حق، والزم نفسك مع عباد الله ولا تطع المتهورين النازقين ومن اختلطت نفوسهم بشحنة الشهوات وإرضاء الغرائز متخطين الخطوط الحمراء المرسومة، فمن خطط لعملية خارجة عن نطاق المعقول متجاوزًا نقاط الحدود فهو للعقاب مطلوب لا محال فيه ولا معذور. فلماذا تقود نفسك بنفسك إلى أمر محتوم؟ هوِّن خطاك قبل أن تعجِّل بك إلى السجن.

ثامنًا: تعرف على الطباع قبل التطبع والانطباع :

الناس معادن كما يقال، ولكل معدن طبيعته وهو ما ينطبق على الناس أيضًا إذ تختلف طبائعهم. فعند التعامل مع شخص أو الاستئناس إليه ومرافقته أو إن ربطتك به صلة عمل أو جيرة أو حالة استثنائية نشأت بها علاقة غير متوقعة، أو موقف جعلك تتعرف إليه، وعلى أى حال كانت العلاقة وأسبابها فإن على المرء أن يكون متحفظًا لا تبسط نفسك بسطًا مفتوحًا من أول وهلة. وعليك أن تعرف حدود هذه العلاقة، والسبب الذى اقتضته كأن تكون علاقة عمل، أو علاقة جوار أو علاقة صدفة أو... أو... حاول أن تتعرف على طباع من تعاشر، كأن يكون شخصًا عصبى المزاج كثير النكد، سهل العريكة، يغلب عليه صدق القول والعمل أم كذوب يقول ما لا يفعل، متسرع، متشائم، متفائل، إلى غير ذلك. خاصة أولئك الذين تنشأ العلاقة معهم لأول مرة، لا تعرف عنهم أى معلومات وعن طبائعهم أدنى معرفة، فمن المستحسن أن تعلم شيئًا من الطباع. وهنا على المرء أن يكون متحفظًا قدر الإمكان، لا يركن للضحكة والضحكات فهى أحيانًا تتلون فيقال: ضحكة صفراء، وبيضاء، وربما نذهب بعيدًا فنقول: ضحكات حمراء، وهى ما تضمر وراءها خبثًا.

فلا تشـدك الابتسـامة العريضة فربما وراؤها ما وراؤها، لا تجذبك الكلمة الملبسة بالطيبة، فربما خلفها ما لا يسر. بعضهم قد يظهر عليه الطيبة وكأنها من طبعه أصلاً وهى محامد الصفـات، لكـن لا يجب أن يغيـب عن بالك أن هنـاك من يتطبعهـا ويتقمَّص صفتها؛ ليمررعليك ما يخفى وراءها.

الأهم فى كل هذا أن يكون الإنسـان متحسـبًا لعلاقاته بالآخرين ويطمئن إلى من يطمئن إليه القلب، ويحتفظ بعض بشـيء متريثًا من لا يعرف طبائعه حتى يسـتبين حقيقته، كل ذلـك حـذرًا من الوقوع فى والعلاقات المشـبوهة؛ خشـية أن تحملك إلى قارعة السـجن. فتخسر بها قوتك وعيالك وأهلك، بسبب علاقة عابرة أو معرفه طارئة.

تاسعًا : الإذعان إلى الأهواء

الإذعـان إلى الأهـواء يعنى أن صاحب الهوى يعطل ملكات عقلـه، فالعقل ميزان يزن نضيد الفكر وهضيم الذهن، يفرِّق بين سـقيم ومعافى، جميل من قبيح، حسـن أو سـيئ، فالعقل مختبر يميز الخبيث من الطيب والخطأ من الصواب فى القول والعمل، فهو كالعين الخالية من القذى ترى الألوان بألوانها، فإن أصابها عمش فقدت القدرة على رؤية الأشياء على حقيقتها، فتعشو عن رؤية الواقع كما هو. مثل ذلك العقل من أحسن استعماله واستوقد سنا شعاعه فسوف يوظف طاقاته ويفجر قدراته ليؤدى وظيفته على الوجه المراد منه، ومن عطَّله فهو كمن أجرى الماء فى غير مجراه، تتعلق به علائق تعكر صفوه ملوثة نقاؤه. فتأتى أحكامه مشـوبة بما اعتراه، لا يرى بأسًا فيها ولا يحسب حساب عواقبها. وبما أن العقل عماد التكاليف والتكاليف مناطها الأهلية فلا تكليف من غير أهلية، فالعاقل راشـد وطالما هو راشد فهو مكلَّف يعقل ما يفعل ويعى ما يقول فهو مسئول عن ممارساته بعكس المجنون فهو غير مؤهَّل والصغير غير راشد ولأنه كذلك فهو مرفوع عنه التكليف، فهو غير محاسب عما يصدر عنه، فمن انصاع إلى أهوائه وهو مدرك يتمتع بكامل قواه العقلية والحسـبة فهو محاسـب على تصرفاته ومحسوبة عليه سلوكياته، فليقَ حسابه لأنه لم يذعن لحكم العقل فيرمى نفسه فى السجن وهو مدرك أنه على خطأ.

عاشرًا : تصورات خاطئة :

بعض الناس اسـتقرت فى مخيلته صور لحالات مرت به التصقت فى ذهنه على أنها من المسـلمات خاصة صغار السن، شـكلت قناعة مجانبة للمقبول تبلورت بمقولات عابثة

تناقلتهـا الأفواه وترادفت ترددداتها عبارات جوفـاء لا نصيب لها من الواقع المعاش. ومع شيوع تراكماتها أخذت طابع القواعد الثابتة. استوحت منها سلوكيات وقامت على منوالها تصرفـات، وأكثر ما يلفت النظر أنهـا ظلت تتناقل من جيل إلى جيل دون فحص وتدقيق يأخذونها كما لقنوها بباطلها.

فمثلاً شخص يقول: إنه كان يعمل فى متجر كبير يستطيع أن يختلس دون أن يشعر به أحـد، لكـن ضميره يؤنبه كلما همَّ بذلك. قال له صاحبه موبخًا: يا مجنون لا تدع الفرصة تفلت من يدك وقام يردد عليه عبارة من تلك العبارات الباطلة. قائلاً له: هى لك أو لأخيك أو للذئب. فاقتنص الفرصة. ولماذا تتركها حتى يأتيها الذئب فيأخذها منك ؟ وآخر يقول له: خذها فهى فرصة. فإن لم تأخذها أخذها غيرك.فأنت أحق بها. ومن المقولات المفرطة تلك العبارة الشـائعة: أن الأخذ من المال العام لا يعتبر سـرقةً، فهو ليس لشخص بعينه. اسـتوحى صاحبنا هذه المقولات، شـحن بها فأقدم على اختلاس جزء من الدخل اليومى فـكان حظه عاثرًا حيث أقام المتجر جردًا عامًا فاتضح أن هناك فرقًا لم يورد إلى الخزينة. حامت الشكوك حوله وبالتضييق عليه ومجابهته انهار معترفًا. فكان أن استُدعيت السلطة وحُوكم بها. فخسـر عمله وأودع السـجن. فلا عبارات تنفعه ولا مقولات تدافع عنه وكان هذا جزاء من خان أمانته مذعنًا لهواه.

الرقابة الذاتية كيف نفعلها ؟

كل إنسـان فى داخله جهـاز رقابى يكبح انفعالات الهفوات وينظم جماح الشـهوات منظوم بخمس منظومات :

- أولها: الدِّين وشرائعه .
- ثانيها: نظم وقوانين.
- ثالثها: قيم وأخلاقيات.
- رابعها: أعراف وتقاليد.
- خامسها: دوائر الوازع الروحى والضمير الحى الملتزم بالواجبات المترتبة عليه.

فالدِّيـن يرسـم منهج الحياة ويرشـد إلى المقامـات العلية ويبين معـالم الطريق للعيش الكريـم، ومعانى الحـلال والحرام تدل إلى ما يصلح الذات وتسـتقيم به الحياة، من لزمه رسـا به على برالأمان فرشـد وهدى. ومن خرج عن طوعه تفرقت به السـبل فشط وغوى، ثم يردف ذلك مجموعة من النظم والقوانين المنظمة للسـلوكيات وقواعد الضبط الاجتماعى.

وما يليها من قيم وأخلاقيات تقوم عليها أسس التعاملات السكانية ملزمة للفرد على حد سواء مع الجماعة.

ناهيك عن الوازع الروحى المتمثل فى الضمير الذى يرقب تصرفات صاحبه ويوزعه لقويم العمل وصالحه، يوخزه إذا همَّ بعدوه ويلهمه إذا بدر منه تجاوز.

فمن تمرَّد على تلك المنظومات فهو آثم يستحق عقوبة عليها مقررة، ومن استرسل مع ميوله ولم ينهَ نفسه عن غيها فقد أفلتها من عقالها وحطَّم حواجز المنظومات فلم يرعَ حرمات شرعية وقانونية وعرفية وسقط فى فتنة ذاته. فمن يذكره إذا نسى وينبهه إذ غفا ويوقظه إذا غفل، إنه الصوت الذى يخاف عليه يدق رنينه منذرًا إذا دنا من خطيئة، ينادى بإلحاح. لا أحد يسمع صداه إلا صاحبه ولا يحس به إلا ذاته، فإن كبته ضمر وتوارى خافتًا صوته متقهقرًا صداه.

من أجل ذلك تجد الذين يتجاهلونه واقعون تحت ضغط الشهوات المتدفقة تدفع بهم إلى مجاهل العواقب. فإذا اصطدم بما لا يتوقعه انهالت عليه ندامات من كل حدب وانكبت على رأسه هموم من كل صوب، عندها يبرز صوت الضمير يناديه من عمقه: ألم أرسل لك إشارات ردع كنت عنها لاهيًا وعن إشارتى معرضًا؟! فالآن خلِّص نفسك فأنت الذى تجاهلت إنذاراتى وحجرت على صوتى.

ولما كان أى فعل لا يخرج عن مربعين: إيجابى وسلبى، فإذا كان العمل سويًّا فهو فى المربع الإيجابى نسبة الخطر فيه متدنية، لماذا؟ لأنه سليم ومن الشرائع والقوانين ومألوف العرف قريب، وأما إن كان غير سوى فهو منافٍ للشرعية يصب فى خانة السلبية نسبة المخاطرة فيه مرتفعة ويزيد من خطورتها التمادى فيها، فما بنى على خطأ فهو خطأ، نهاية مطافه يضبط بشر عمله عامدًا كان أو ناسيًا غافلًا كان أو مستغفلًا، أحدهم قد لا يكون البطل الأساسى لجرم فعله ولكن استغله آخرون وشجعوه على فعلته وجروا رجله إليهم متعاونًا أو متعاطفًا أو محاكيًا ومقلدًا. فلا يكون فى منأى عن العقوبة ستجرى عليه جريرتها ويمسه مسامها. فيكون ضحية يجنى عقوبتها خلا أنها ستطبع عليه عارها وتترك على مسيرته بصمتها. فضلًا أنه سيكون مكان لمز وهمز، فمن يره سوف يشير إليه بهمس وستلاحقه الغمزات هو من أوقع نفسه فى معرضها. فلو نظر إلى المربع الثانى بنظرة مراقبة ذاتية واعتبر بما انتهى إليه المفرطون قبله لتورع عن الاقتراب لما يوقعه فى العقاب

وظلمة السجن، فملامة نفسه تحاصره علاوة على ملامة العقوبة، فلا من يعذرك تقول: يا ليتنى كذا! فعقارب الساعة لا تعود إلى الوراء.

فالإيجابى موافق للسوية | والسلبى معارض للسوية

لو ندقق النظر فى المربعين سنجد أن الإنسان أصلاً واقع فى المربع الأول؛ لأنه بطبعه مفطور على السوية يعمل بما تمليه عليه فطرته الذى يقوده إليها، فمن عاكسها يزحف إلى المربع الثانى. لم يتوقَ الحذر منها ولم يحسب حسابه بدقة ولم يأبه بمردودها .

فمن امتطى دروب السلب فقد أرهق حاله وخرج عن سويته فخسر نفسه، ومن مشى مشى الإيجابية استقام على السوية واستحق استحقاقها، فأى الحالين أحق بالأمان الساعى لموجبات الفضيلة أم الساعى لمترتبات الرذيلة؟

فالمربع الأول هو ما تروم له العقلانية، والمربع الثانى ما تروم له الرغبوية. فمن استجاب لمنطق عقله فقد نهى النفس عن الهوى، ومن طغت عليه رغباته وتخلى عن منطق عقله فقد هوى لتدخله فى مراحل يطوق عنقه زمامها، تجره جرًا لمستوياتها شيئًا فشيئًا تستقوى حتى تطغى على منطق العقل، بل تحيده فتصبح تصرفاته تبعًا لهواه، يستحوذ عليه شيطانه فيغلق باب فكره محبوسًا فى سجن نفسه إلى أن توقعه فى السجن فيكون قد وضع فى سجنين: سجن العقوبة، وسجن النفس. فيا صاحبى ما هكذا يجب أن تكون نهايتك، وما هكذا كان يجب أن تغلق نفسك على رغباتك وتلوذ بشهواتك وتستسلم لأهوائك وتحيد عقلك الذى به يميِّز الإنسان بين السليم والعليل.

وما كان لك أن تضع نفسك فى ممرات شائكة حتى إذا ما أوصلتك إلى طرق موحشة وسبل قاتمة العتمة لا ترى إلا ظلمتها بدأت بظلمة ذاتك وانتهت بظلمة سجنك، ألم يكن لك عقل أم منحته إجازة؟ أم لم تكن لك بصيرة أم أعطيتها رخصة؟ أم لم يكن لك فكر أم عطلت مشاغله أو أغلقت منافذه ؟ فما حصدت إلا الهوان والذل بين الأنام وتراكم الأدران ووخز الآثام .

فلو كان فى نفسك وازع من دين أو فاعل من قيم أو اعتبار لأخلاق لما فقدت نفسك وجازفت بمستقبلك. لماذا لم يكن الإنسان بصيرًا بنفسه رقيبًا عليها؛ ليأمن بوائقها وينأى عن مواطن الزلل؟! استنزلوك فزللت ونادوك فأجبت واستغفلوك فغفلت واستغللت. أهو

حب الشهوة وحصد المال والاستمتاع بمتعة حرام الالتفاف على شلل الخراب؟ استضعفوك فضعفت. أفق لنفسك فتلك بوادر الوقوع فى متاهات الخطيئة.

ومضات من حكم الأمثال

الأمثـال حكمة من قبلنا فيها عصارة عقول الدهوروومخابر سـالف العصور. هى عبر لنا فطوبى لمن اعتبر ومرحى لمن اتعظ.

العاقل من استرشـد متمثلاً حكمة صاغها المجربـون وقالها أهل خبرة موثوقون، لم تأتِ من فراغ قول. فقد قالوها منذ زمن «اسأل مجربًا ولا تسأل طبيبًا» فأصغِ لما يقولون وهاك هى:

- فى السرعة خسارة. وقيل: فى التأنى السلامة وفى العجلة الندامة. فلا تكن فى عجلة من أمرك.
- الأذهـان تعتل كما تعتل الأجسـاد. فدواء الأجسـاد بالتـداوى ودواء الأذهان بالفحص والتدقيق وما يقوله ذوو الحكمة من أهل الخبرة والدراية.
- فى المراجعة حسبة. فحاسب نفسك قبل أن تحاسب.
- الغفلة غفوة الإدراك واليقظة نباهة الاستدراك.
- المعول عليه هو: تفكير إيجابى فتنجو. أو تفكير السلبى فتقع.
- بئس قرين السوء. فإن تصاحب أمثاله تسوؤك صحبته.
- الاعتبار من سمة العقلاء. فمن اعتبر ساد ومن أعرض مال. فاعتبروا يا أولى الألباب.
- ابدأ بنفسك ثم من حولك؛ لتكتمل دائرة الصلاح.
- إياك وجليس السوء فالوحدة خير من مجالسته.
- «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» (حديث).
- الأعمال بخواتيمها: (تحرَّ خواتم الأعمال السيئة فإنها بئيسة).

ومن أقوال العرب:

- إنـك لا تجنـى من الشـوك العنب: (يعنى أن الطيب لا يأتـى عبر الخبيث فالخبيث لا يأتى إلا بخبيث مثله).
- إياك أن تضرب بلسـانك عنقك. فاللسـان سيف ذو حدين فزن ما تقول، لكى لا يكون عليك دليل.

- لسانك حصانك إن صنته صانك وإن هنته هانك. فلا تهن نفسك بلسانك. ، فبعض الكلم حاد كحد السيف يقطع صاحبه.
- لا تلق الكلام على عواهنه. فرب كلمة قالت لصاحبها: دعنى. فحلو المقال اليوم علقم غدًا.
- أكثر مصارع الرجال تحت بروق المطامع.
- تحصد ما تزرع. إن قدمت خيرًا فخراجه خير وإن شرًا فنتاجه شر، فابتغِ الخير واتقِ الشر.
- لكل مقام مقال. فاعرف ما تقول أين ومتى .
- إن كان للباطل جولة فللحق جولات. فالباطل زاهق لا يقوى على الصمود والحق ضارب.
- زلة الرجل كسر يجبر وزلة اللسان لا تبقى ولا تذر.
- السلامة غنيمة، فاغتنمها بعقل راجح وفعل رابح.
- كاد المريب يقول: خذونى، «لأنه يعرف أنه على خطأ».
- من أعجب برأيه ضل ومن استغنى عن عقله زل.
- الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها. فخذ الحكمة من أهلها.
- السلامة غنيمة. فاغتنمها بعقل راجح وفعل رابح .
- من خالط الأنذال احتقر، ومن دخل مداخل السوء اتهم (فالعاقل من أبعد نفسه عن مواطن الشبهات).
- اختر صحبتك، فالقرين بالمقارن يقتدي، قبل أن تقول: يا ليتنى لم أتخذ فلانًا خليلًا.
- صاحب الطيبين، فالجليس الصالح يهديك إلى الصالح. والجليس الطالح يجرك إلى الطالح.
- استمع لنصائح محبيك، فلا يرشدونك إلا إلى ما يصلح شأنك.
- اتعظ بالسوابق ومن زلت بهم أقدامهم إلى السجون.
- صحبتك عنوانك، قل لى من تصاحب أقل لك من أنت.
- لا تصدق كل ما يقال لك بعفوية. مرر ما تسمع إلى منطق المعقول فالعقل ميزان بين خبيث القول وطيبه.

- لا يغرنك شخص ما فعل فعلاً منكرًا ولم يقع به، فهو عاجلًا أو آجلاً واقع.
- لا تلق بنفسك فى منازل الشكوك.
- كن كيِّسًا فالكياسة فطنة.
- كن عاقلًا مرة ومرتين وثلاثًا. فمستقبلك ينتظرك لا تجازف به، لا تنخدع وراء مقولات مضللة تشجع على التمادى فى الغلط فهى كالسراب يحسبه الظمآن ماء.
- احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة. وإن كان هذا لا ينطبق على الصديق الصدوق المحب المخلص وإنما المعنى بها الذين يتخذون الصداقة سلمًا. فهو من تحذر منه .
- لا تفتح خصومة مع غيرك لأتفه الأسباب، فبعض المواقف أو العوارض لا تستحق المخاصمة فتكون سببًا فى الجفاء بينك وبين الآخرين .
- افتح باب الحوار مع ذاتك فحوار الذات مراجعة.
- خالق الناس بخلق حسن تستجلب مودتهم .
- اكبح أعصابك إذا استفزك أحد، فقد يتعمد استفزازك ليجرك إلى مكروه.
- دائمًا أبقِ لديك وقتًا للتفكير قبل أن تفزع لأى عمل تشك فى نجاعته؛ كى لا تفاجأ بما لا تتوقعه.
- البعد عن الناس عزلة والعزلة تولد غربة وشعورًا بالانفرادية.
- عاشرالخيرين تسعد بهم .
- الحياة قائمة على قاعدة التعاونية. فعاون كما تريد أن تعاون .
- اتعظ بغيرك تصوَّب أفعالك .فالعاقل من اتعظ.
- ابتسم فالابتسامة نقطة عبورإلى القلوب.
- لا تستعدِ العداوات بتحرشات قولية أو تصرفات عشوائية أنت فى غنى عنها .
- أعصابك بيدك إن أطلقت عنانها انطلقت فتخسرك، وإن كبحتها انكبحت ففى كبحها تمهُّل وخيرة .
- تمثل قول الإمام على حين يقول: اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل .
- إياك والاستجابة السريعة لنزعة النفس غير البريئة فإنها نزغة شيطانية يقول تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٠٠].

- رأس الحكمة مخافة الله. ضعها نصب عينيك.
- تذكر أن الحياة تبادلية بين أخذ وعطاء. فبقدر ما تعطى تأخذ .
  استعجل الفعل الحسن واستبطئ ما تشتبه فيه.
- الصمت حكمة وقليل فاعله. فلا تكن من المقلين.

نصائح

اعلم يقينًا أن النصائح كثيرة والعبر جمة وربما يحضركم منها أكثر مما يحضرنى، وحسبى فى ذلك أننى توخيت تحفيز ما يذكر بعضنا بعضًا، فما غاب عنى قد لا يغيب عنكم، إنما القصد التواصى والتناهى عسى فيها ما يوقظ غافلًا وينبه ساهيًا أو يرشد لاهيًا، وتصحيح مسار خاطئ ينتفع بها من كاد على حافة الخطيئة أو أوشك يخطو إلى مواطن موبوءة لتقع موقع المراجعة يصلح بها حال ويصنع بها فلاح.

ما فتئت نصائح تتردد وعبارات تتناقل عبر الزمن، ومع ذلك يقع الكثير فى عكسها خاصة حديثيو السن وقليليو الخبرة والدراية. ظلت تتكررعلى مر الأجيال، فقد سمعها الآباء من الأجداد ويسمعها الأبناء من الآباء من منطلق صدق فعالها وسمو معانيها ليدركها الجيل الجديد؛ خشية عليهم من الوقوع فيما يسوء حالهم ليضعوها نصب أعينهم، لا يجب أن يعيل صبرهم من سماعها ولا تضيق صدورهم بها، ذلك أن المُقدِم على تصرف خاطئ لا يرى جانب الخطأ، فهو كمن ينظر إلى الكأس فلا يرى منه إلا النصف المتلئ ويتعامى عن النصف الفارغ بينما الكأس واحد، فهو إذا ركَّز على جانب متجاهلًا الجانب الآخر فمثله مثل من يقدم على غلطة، فلا يرى إلا ما تهوى نفسه فيأتى من يقدم له نصيحة فلا يعيرها اهتمامًا؛ بحجة إن هذا كلام مسموع من قبل فيقول: أنا أعرف ماذا أصنع، وفِّر عليك نصحك! حتى إذا وقع قال: آه ! ليتنى سمعت نصيحة أبى، وليتنى أخذت بمقولة والدتى، ويا ليتنى تدبرت ما قاله ناصحى.

فالنصيحة حصن للمنصوح، والناصح ليس له مصلحة إلا مصلحة من ينصحه. فمن لا يقبل النصيحة يندم، وهيهات للندم أن يعيده إلى المربع الآمن.

بعد قراءة هذه النصائح حاول أن تكون أذنًا صاغية لناصحك وقلبًا متأملاً لمن يرشدك، لا تتململ ولا تتأوه فقد كان من سبقك لا يعيرها اهتمامه فأضحى ضحية تأوهه فأوردته السجن بلا هوادة.

فـــى أدبيات التراث تجد أن بعض القادة والحكام وأصحاب الســطو والنفوذ وأرباب رؤوس الأموال كانوا كثيرًا ما يطلبون النصيحة من عاقل أو عالم أو مجرِّب أو ذى حكمة فيســتنصحه. فكم من نصيحة أثنت متســلطا عن التسلط! وكم من نصيحة وقعت موقعًا صائبًا تراجع طالبها عن ظلم كاد يقع فيه! فاطلب النصح ولا تتأفف إذا أتتك ولا تغلق بابــك دونها، لا تســتهن بنصيحة ناصح. وإليك هذه القصة ســأرويها كما سمعتها من راويها فيقول:

ذات يــوم كنــت أعانى من فراغ إجازة فعرجت إلى أحد زملائى فى اســتراحة له على غيرموعد، طرقت الباب فأتانى صوت ليس صوت صاحبى .

فقلت: أين فلان؟

قال: من أنت؟

قلت: فلان.

فــتردد قليلًا بعدها جاءنى صوت صاحبى: أهلًا تفضل. تريثت متباطِئًا الدخول حيث أحســست أن الوقت غير مناســب للزيارة. قلت معتذرًا: أنا آســف سأراك فى وقت آخر إلا أنه ألحَّ عليَّ. دخلت فإذا ثلاثة رابعهم صاحبى يبدو أنهم كانوا يلعبون الورق (كتشينة) لفــت نظرى أنهم منزعجون مــن مجيئى. ينظرون لبعضهم، خيم عليهم الصمت كأن على رؤوســهم الطير. فعلًا شعرت أننى ضيف ثقيل. فاستأذنت للخروج أحدهم استبشر والثانى تململ والثالث تجهَّم وبدا صاحبى محرجًا يقلِّب نظره بينى وبين رفاقه الذين لا أعرفهم. وفيما أنا أســتعد للنهوض سمعت صرصرة كاسات حينها نهض أحدهم مسرعًا وكأنه يريد أن يســتبطئ مجيء حاملها إلا أن خطى الخادم كانت أسرع، يحمل أكوابًا وأباريق يومئ له قائلًا: ارجع.. ارجع بصوت خافت، فاصطدم الاثنان عند فتحة الباب، فسقط الصحن وســقط ما فيه من أكواب فضية وقواريرمغطاة بلبادة حريرية تحفها كاسات لمعتها ذهبية، عندها فاحت رائحة لم أتعود عليها ســرعان ما تذكرت ما أشــاهده فى الأفلام، التفت إلى صاحبى وهو ينظر إلى نظرة خجل؛ لأنى لم أعهده على هذا الحال. فخرجت تحت جناح الصمت مندهشًــا سمعــت من يقول: (خليه يولى) ما أثقل دمــه ! أحد يأتى بدون موعد! الحقيقة أنه استفزنى فهممت أن أعود للرد عليه لكنى آثرت أن ألوذ بالصمت وعدم الرد، كى لا أدخل فى نقاش أو شــجار خاصة أن صاحبى فى موقف حرج مقدرًا شــعوره متفاديًا ردة الفعل، لكنى كنت متأثرًا بالمشهد ولم تفارقنى صورته.

أما المشهد الثانى لهذه الواقعة يردف قائلاً: تملكنى إحساس بالذنب للمشاركة عن غير قصد فى معصية؛ لأنى لم أنكر المنكر. فهاتفت صاحبى من تلفونى النقال بعد خروجى؛ لأعتذر منه فلم يرد عليَّ. وفى اليوم التالى قابلته صدفة فكان فى غاية الحرج؛ لأنه انكشف ما كان يستره. فاتحته مناصحًا فأبدى لى ندمه ووعدنى ألا يعود لمثل هذا وأن يبتعد عن شلة السوء، فدعوت له بالهداية.

المشهد الثالث متابعًا يقول: قابلت أحد الذين كانوا فى الاستراحة بعد صلاة الجمعة، فسلمت عليه وطلبت أن أجلس معه لدقيقة أو دقيقتين فبادرنى قائلاً: أعرف ما ستقول، أود أن أبشرك أننا جميعًا تعاهدنا على الإقلاع عن المعصية وكانت زيارتك إلينا صدمة لم نتوقعها فأفقنا وأيقنا أننا على خطأ. فلو لم نكن على خطأ لما انتابتنا الصدمة؛ خشية افتضاح أمر اقترفناه إثمًا، زيناه لأنفسنا غرورًا حاولنا مواراته عنك. وهذا يعنى أن الغلط يورث مذلة لصاحبه ينكس الرأس، والمقابل من ذلك فإن الصح يشرف صاحبه ويرفع رأسه لذلك قررنا أن لا نذل وتخزينا المآثم. يقول الراوى: فكانت مناصحتى قد وقعت فى محلها؛ للتراجع عن مسار يمكن أن يجرهم إلى معاقرة مآثم أخرى؛ لأن الخمر أم الكبائر كما يقولون.

تصورات واقعية

- تصـوَّر وقد أتيت عملاً شـائنًا ووقعت فماذا يكون لسـان حالك؟ أليس حسـرة فندامة ففضيحة وأنت فى حل من هذا لو تبصرت ووازنت وعقلت وراجعت؟!
- إن عرض عليك فعل منكر أو عنَّ لك القيام بعمل شـائن فأنت أمام حالين فى داخلك: الأول ينهاك، والآخر يجذبك، شـُّد وجذب، فاختر الأول وكفَّ عن الثانى متعوِّذًا من شيطان الأمانى.
- تأكـد أن الهوى يسـلم صاحبه إلى السـجن، وأن من اتبعوا هواهـم كانوا ضحية لها، فلا تستسلم لهواك فإنه مرديك.
- إذا دعتك نفسـك لعمل غير مألوف، فلا تسلمها إلى هواجسها. عليك باستشارة من تثق فيه، فما خاب من استشار.
- الأفـكار الشـيطانية أولى خطـوات الانزلاق إلى السـجن قاومها ما اسـتطعت إلى ذلك سبيلًا.
- لا تتهور بوهم الشجاعة المفرطة فأوهامها مغرية بالتهور.
- تذكر أن بين الشـجاعة والتهور خيط رفيع، فلا تخدع نفسك وتتمادَ باسم أنك شجاع، فالتهور مطية السجون.
- إذا راودتك فكرة سـيئة فلا تحبسـها فى داخلك؛ لتتفاعل مع هواجسـك بل أخرجها إلى العلن، وأسـرَّ بها إلى شـخص موثوق فإن نفر منها فذلك نذير لك لاجتثاث بذرتها من جذرها.
- لا تحزن على ما فات. فكل ما فات مات وانظر إلى ما هو آت.
- نفسك عزيزة عليك فلا ترخصها برخيص مجهول العواقب.
- تذكـر أن أى فكرة شـاذة تطرأ عليك تقابلها فكرة مضـادة تأمَّل الثانية؛ كى لا توبقك الأولى.
- هـل تعلم أن من خاف سـلم. فالخوف من الوقوع فـى المعاصى والآثام أداة ردع وعقال تهور من المجازفات المفضية إلى السجن.

- تذكر أن النفس أمَّارة بالسوء فلا تطلق عقالها.
- تصالح مع نفسك فالمصالحة مع النفس فتح حساب فى بنك الائتمان النفسى؛ لزيادة رصيد الأمان فتأمن سوء العقاب.
- كل المنحرفين يحبون أن يكون لهم شركاء فلا تكن صيدهم، فدنيا اليوم مليئة بمثل هؤلاء فلا يكونوا أذكى منك فيجروك إليهم.
- ضع أمامك خطوطًا حمراء لا تتعداها، وخلِّ عندك سقفًا لروادع لا تتخطاها، فتخطيها يعنى خطوة إلى السجن.
- كن لذاتك ناصحًا وإن اختلطت عليك الأمور اطلب النصيحة من أهلها.
- إذا هممت بزلة تذكَّر أنها أولى الخطوات إلى السجن.
- توقَّف دائمًا عندما يثير فيك القلق فهو ناقوس إنذار أنك على حافة خطر.
- استجب لنداء الروح وإشارات الضمير فهى ناصح أمين.
- إذا حضرت مجلسًا لا تكشف كل أوراقك أو تنشر غسيلك من أول وهلة، بل تريَّث خاصة إذا كان بالمجلس من لم يكن لك به معرفة سابقة.
- ليس كل من ضحك لك صديق وليس كل من انفتح عليك رفيق، احفظ لنفسك خط الرجعة.
- كن كالصندوق الأسود فى الطائرات يختزن كل شىء فلا تبح بكل ما عندك دون داعٍ، فلكل مقام مقال.
- لا تكن بابًا رحبًا يدخل منه من هبَّ ودبَّ، افتح أبوابك بقدر بحيث لا يدخلها إلا من كان على مقاسها.
- قلب المؤمن دليله، فما أقبلت عليه نفسك تعامل معه وما أجفلت منه تعامل معه بحذر.
- القناعة كنز لا يفنى، فارض بما قسم الله لك تعش قانعًا.
- لا تكن إمعة تقول مع من قال وتفعل مع من فعل دون تعليل أو تدليل.
- لا تمل من سماع نصائح والديك وذويك فهم أكثر الناس خوفًا عليك.
- استفد من تجارب الآخرين حسنها وسيئها فالزم الحسن وابعد عن السيئ.
- تذكر أن الفشل حافز لمطلب إيجابى وسلم للنجاح، لا تتقوقع على فشلك بل تعلم منه لمعاودة الكرة تلو الكرة؛ لبلوغ مقاصدك الخيرة.

- لا تنهزم أمام المشكلات العارضة وتعلم من النملة كيف تصابر وتحاول لتجميع قوتها فى مخبئها، مرة تلو المرة، فلا تيأس بل تأمل خيرًا وثق بقدراتك وفعل طاقاتك الشخصية فلا يأس مع الأمل.
- تعلم أن ردود الأفعال السيئة أعظم درجة من الفعل نفسه.
- نفسك نفسك لا تفرط فيها، كل نفس على نفسها بصيرة.
- جاهد نفسك بنفسك، فالتحرز من الزلات مجاهدة.
- جانب مواقع الفتن، فالفتن حصاد للنعم وجلب للنقم معدمة للأمان .
- النفس ثلاث: نفس مطمئنة، ونفس لوامة، ونفس أمَّارة بالسوء.

– النفس الأمارة بالسوء: ميالة إلى الشهوات واتباع الأهواء، تدفع بالإنسان إلى ما يرضى غرائزها ويلبى شهواتها وهى خاصية الانجرار إلى ما يشبع الرغبة .

– النفس اللوامة: التى تكبح الرغبات وهى نذيرمن كل خطر.

– النفس المطمئنة: التى تتجاوب مع ما تدعو إليه النفس اللوامة وتعارض ما تدعو إليه النفس الأمَّارة لتوافق مكنون الضمير.

- تمهل باتخاذ قراراتك فالقرار الرشيد لا ينضج إلا فى الروية.
- لا تغتر بقوتك فبعد أن تقع تضحى عاجزًا ضعيفًا.
- الحق أبدًا أمضى والباطل دومًا أو هى.
- المركب يسير بدفع مجداف فلا يكون غيرك مجدافًا لك يدفعك إلى بحر الخطيئة.
- إذا خلدت إلى الراحة راجع حساباتك كيف أمضيت يومك، فإن أخطأت أو اعتديت كفِّر عن أخطائك واعزم على البراء منها.
- لا تدخل فى جدل لا طائل منه تخسر وقتك ويستعدِ عليك غيرك.
- كثير من التصرفات البسيطة لا يلقى لها المرء بالا ولا يحسب لها حسابًا ولا يتوقع مردودها العكسى تسلمه إلى السجن من حيث لا يدرى فيعض أصابع الندم.

هذه دعوات تسوق تسلسلا منطقيًا للوقوع فى مساوئ التصرفات التى تفضى إلى السجن:

١ – هب أن شخصًا يمارس حياته بطريقة عادية لا غبار عليها، وفجأة اشتعلت فى ذهنه فكرة الظفر بمال سيان كان حلالاً أم حرامًا، لتغطية متطلبات احتياجاته، فتبدأ

تتوارد إلى ذهنه أساليب ووسائل وحيل وتمويه وأعوان ومساعدات ترتيب ووقت يستذهن ذهنه مدفوعًا بزخم فكرته. لا يرد على باله الوجه الآخر للفكرة. ناسيًا أنه كما فاجأته الفكرة فربما أيضًا تفاجئه الوقيعة، فمثل هذه الأفكار مغبون بها صاحبها فلا يدرك غيها حتى يقع فى فخها.

٢ – تظل تعتلج الفكرة فى الذهن تتوهج شعلتها. يتضامر ضرامها تختمر سبكتها. حتى إذا حبكت حبكتها تحول بها من طور التفكير إلى طور التفعيل.

٣ – يبدأ برسم خطته مستعرضًا الخيارات والبدائل والمساندات المادية المناسبة والمسالك التى يسلكها. هنا يكون فى وضع استعداد وجاهزية لينتقل إلى مرحلة الخطوات التنفيذية.

٤ – يعمل على تحضيرأدواته العملية والوسائل الداعمة.

٥ – تحديد ساعة الصفر بالأسلوب المختار، الدخول إلى أماكن مغلقة أو أماكن مكتظة بالتخفى أوالتمويه أو بواسطة وسائل أو أعوان، أو تهيئة ظروف نقاط الدخول والخروج أوالاختباء... إلخ.

٦ – بعدها يعمد إلى التنفيذ ناظرًا إلى جوهرالزلة من ظاهرها وحسب ما تصوَّر ورسم. فقفل يخطو خطواته الأولى نحو الهدف متجاهلًا ما يلوح فى النفس من التوتر والخوف مما قد يعيقه فى هنيهة من الزمن ينهارحلمه ويقع فى دائرة المسائلة.

٧ – بين الإقدام والإحجام تتداخل نفسان: النفس الأمارة بالسوء دفعت به للتقدم والنفس اللوامة تلوح بلوم، فمن كان ذا إيمان عدل عن فعله، فإن ألحَّت عليه الأولى بالتقدُّم وزين له الشيطان سهولة المضى فيه معللاً أنها خبطة سيخبطها ويكسب المال دون أن يشعر به أحد، استحكمت حلقاتها وأصبح الأمر فى منتهى البساطة، عنده عميت بصيرته عن إمكانية وقوعه فيما لا يتوقعه غير مبالٍ بما ستؤول إليها النهاية. وأما قوة إيمانية تحثه على التراجع تقول له: توقف فأنت على شفا حفرة قد تهوى بك إلى سوء خاتمة.

المرء العاقل يتراجع، ولذلك فالنصيحة التى نود إيصالها هى: أن تجعل للعقل فسحة يوازن بين ما أنت فيه وما بعده، عندها سوف تبصر صورة النتيجة وسيبقى خيارك الرجوع إلى الحق.

ليكـن معلومًـا أن الانجـراف إلى الخطأ عمل مصنوع لا مطبوع. لأن الإنسـان مجبول على الخير.

- لا تسـتزلك نفسـك وتتمادى فى غيك وتقنعها أنك فطن، ليس هذه فطنة. فالفطين من عرف أن يستقيم ولا يستزل فيجيب.
- لا تنـسَ أن المرء بأصغريه: قلبه ولسـانه. فاجعل قلبك معقودًا بالصالحات. ولسـانك معقودًا بالذكر.
- لا تمشِ كالنعامة تدس رأسـها فى التراب، تظن أنها فى مأمن من الخطر بينما الخطر يداهمها، فإن تعمل عملاً غير صالح وأنت بكامل قواك فأنت كمن سـلَّم نفسـه مختارًا وخطا برجله خطوة إلى السجن لم يُجبرك أحد أن تفعل ما فعلت.
- لا تولول تضرب يدًا بيد أو تدس رأسك بين يديك وتعض أصابع الندم وتبكى أسفًا وتتأوه حسرة. كيف وأنت من اختار هذا؟! واجه مصيرك اليوم، بل غدًا وبعد غدٍ، وصمة عار ستظل تلاحقك، طبعتها على جبين أيامك، كلما تذكرتها نكَّست رأسك. فلماذا يا هذا تخطو خطوة الهاوية ؟ ولماذا تقف على شفا حفرة ولا أخا لك ؟ ألا تعلم أنك مقدم على خطيئة، فلم الزج بنفسك لتنتكس على أم رأسك؟
- تذكر يا أخى فى الله، أن الله لا يغير ما بك حتى تغير ما بنفسـك فمنك المبتدأ وإليك المنتهى.

مـاذا أنت فاعل وقد أتيت نقيصة ؟ ماذا أنت فاعل وقد فعلت مصيبة وقد كنت تدرى أنك مسـيء وفعلك غير مصيب ؟ هونت من قدرك فهنت وحقَّرت نفسـك فصغرت بعد أن كنت كبيرًا وطأطأت رأسـك بعد أن كنت رافعًا، فلا تلم لائمًا بل وجِّه اللوم من نفسـك إلى نفسك. أغمضت عينيك أن تبصر الحق لتتبعه.

- إياك والتشبث برأى تراه صائبًا فقد يحتمل الخطأ عند غيرك.
- لاتقدم على عمل تعلم مخالفته مكابرة وعنادًا، تأخذك إليه العزة بالإثم فتبوء به.
- اجعل فيك قدرًا من الحذر، فالحذر مطلوب فيما تجهل تفاصيله أوغمغمة شفافيته.
- إذا واجهت ما يثير غضبك أو يسـتنفرك اضبط أعصابك وتحكَّم فى نفسـك وانظر إليه بشـيء من الهدوء والروية. لا تتعجل فالعجلة حماقة والحماقة تصيب صاحبها، فكثير من المواقف قابلة للعلاج والمداراة إلا الحماقة فذاك الشاعر يقول:

– لا تنسَ أن ابن آدم مسئول عن تصرفاته القولية أى ما يقول، والبصرية أى ما يبصر، والسمعية أى ما يسمع، والقلبية أى ما يعى. وتدبر قول تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٣٦].

فهو محاسب عما يسمعه مخالفًا دون أن ينكره أو ما يراه معيبًا ولا يعيبه، أو ما يدرك شددوه وبطلانه فلا يعالجه أو يزيله، وما ينزل بمساحته لا يتدبره أو يستوعبه .

– إذا التبست على إنسان أمور تدور حوله ولم يحط بها أو تصرفات مبهمة بشبهة لا تنسق معها، فالاحتياط واجب، كل تلك ومثلها خطوات إلى السجن.

لا تغفل عنها أو عن مثلها فتجنى على نفسك عندها ينطبق عليك المثل العربى.. على نفسها جنت براقش، لماذا نكون أنت براقش؟!

ارسم خريطة طريق؛ للوصول إلى أمان المستقبل، ابدأ خطواتك برشد.. فمن الذى لا يود أن يعيش عيشة هنية ؟ فمن أراد أن يسوى نفسه كما يجب عليه أن يبتعد عما يجب متحاشيًا الشبهات، وإن تشابه عليك أمر فاعتزله قبل أن يسوءك أو قبل أن تتأثر به وابحث عن السويات تستوِ علومك، واعلم أن مفاتيحها تقوى الله .

– لا تقدم على شىء تتوجس منه خيفة، فمجرد أن تشعر بالخوف منه فهذا يعنى أنه تشوبه شائبة. افحص ما بنفسك لمعرفة سبب خيفتك فربما كان عملاً مشبوهًا فلا تغامر فى شبهة.

– كل إنسان عنده فضول ليكشف مجهول لكنه سيف ذو حدين، فالفضول قد يجرُّه للبحث عن حرمة أو معصية فتقوده إلى محاضن موبوءة. فاختر أين توجه فضولك.

– لا تجادل فيما لا تعرف، فقد يجرك إلى معاندة والإصرار على الرأى أو تعصب يدخلك فى معارك جدلية تفضى إلى خصومات وخلافات تتعبك.

ـ هناك حكمة إنجليزية تقول: (Doubt means dont).

الشك يعنى لا تفعل فإن ساورك شك فى شىء فتجنبه أو على الأقل اختبره. فهو يحرك فيك سوء الظن، وفى هذا يقول بعضهم: «سوء الظن من حسن الفطن» ولا نقول بإطلاقه إلا فى مواضع تتطلب الشك لإجلاء الغموض .

– «**احفظ الله يحفظك**» نصيحة نبوية فخوف الله وقاية من الزلل.

- لا تفش إسرارك. فالحديث يقول: «**اسْتَعِينُوا عَلَى قَضَاءِ حَوَائِجِكُمْ بِالْكِتْمَانِ لَهَا؛ فَإِنَّ كُلَّ ذِى نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ**» فسرك الذى لا تحتمل كتمه من الأحرى أن لا يكتمه غيرك.

- كانت أم تنصح ابنتها: أى بنيتى، إياك والثقة العمياء وأن تسلمى قناعتك لكل ما يقال من كلام معسول وقول ملهوب وحماس ملهوج. عبارات براقة وألفاظ لمّاعة وضحكات جذّابة وتلطفات مصطنعة. بعضهم كالحية الرقطاء تلدغ وتترك الملدوغ يتلوى.

كيل من الزيف لا يماط لثامة ولا يدرك كنهه بسهولة. اعلمى أن ميل الإنسان للإنسان شديد والرغبة للرغبة جاد به ونداء الأجساد للأجساد مشاعرية صوتها خافت. بنيتى: المرأة من ضلع الرجل مصنوعة بكوم من العواطف، ملفوفة بفيض من المشاعر. تلك حبائل الرجل للمرأة.

- أى بنيتى، إياك والوجدانيات الإلكترونية عبرالمواقع الإنترناتية وعلى صفحات اليوتويب والفيس بوك والتويتر وما الشات ولا الماسنجر إلا ضياع وقت وعلامة تدل على الفراغ (إلا من قضى وقته يبحث ويدرس فى جديد العلم والمعرفة).

لاتنخدعى بالآهات المعلبة فى علب الإنترنت عن بعد، الموجه كذبًا وخداعًا وتلاعبًا بالعواطف. بنيتى، أخاف عليك من حومات الذئاب فالذئب ينهش الماعز ويتركها تتضور جريحة تصارع جراحها.

بنيتى، كم من فتاة وقعت فى فخ كاذب وزيف ملفق متصنع يسافر عبر موجات الإرسال يتلاعبون فيه بقلوب الفتيات!

فلا يغرنك تملق المتملقين وتنميق عبارات المنمقين وزخرف قول المزخرفين وجمال أسلوب اللغويين وبلاغة لسان الألسنيين وأهل الفصاحة والبيان. فليس ذلك من فنونهم ولا حظ لهم فيه وإنما هى كلمات حفظها وتدرَّب على إلقائها ليلقيها بكسر فواصل الكلمات ودبلجة تهييج الصوت؛ للإيهام بحرارة العاطفة لتقبل منه مصدّقة. فكم من فتاة طاف عليها هذا المطاف!

بنيتى، سمعة البنت رقيقة كالزجاج لا يجبر إذا انكسر أو انشرخ.

من يطريك ويبالغ فى نعوتك بمناسبة وبدون مناسبة بجميل مقاله وحلو لسانه وتبهرك شخصيته، ضعى فى اعتبارك هامش سوء ظن فربما كمين، فالسبع يكمن لاصيطاد فريسته بعد أن ينال مناله. يتركها لتبدأ مشوار معاناة وعذاب.

إياك وإظهار الإعجاب المبكر فإنه أول منازل المهلكات العاطفية الزائفة.

تذكيرات

يقول الله تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٥].

فالذكرى ناقوس يدق فى عالم النسيان، والذكرى ملهمة للقلب شاحذة للانتباه محفزة للوجدان، استدعاء لمخزون الذاكرة. موقظة للغافل. الذكرى تحفز النفس تصقل الروح تشحذ الذهن، يستحضر بها الإنسان صورة سابقة أو عبارة سالفة أو قولاً مأثورًا، فيها موعظة فحواها عبرة جوهرها حكمة، ترشد إلى السليم وتنهى عن السقيم تلهم اللاهى عن ورود الملاهى.

الإنسان من طبعه النسيان، وقد تغلب عليه الغفلة، يستدعى السوابق؛ ليستقى منها ما ينفعه ويستبعد ما يضره.

فهذه طائفة من التذكيرات عسى الله ينفع السابحين فى خضم الأيام تيهًا وغفلة قبل أن تسلكهم مسالك واهية قلوبهم عنها لاهية.

فهذه طائفة من التذكيرات تذكرك إذا نسيت وترشدك إذا غفوت:

- تذكَّر أنك تمارس حياتك ونشاطاتك بحرية من خلال مكونات الحياة تحت مظلة الحلال والحرام. فأى ممارسة خارجة عن بنودها تعمل على إخفائها ولا تحب أن يطلع عليها غيرك! لماذا؟ لأنك تعلم أنها مستنكرة. وطالما هى فى نظرك هكذا فهى عند غيرك كذلك. فانظر لنفسك قبل النظر إليك؟
- تذكَّر لحظة وقوعك فى قبضة العدالة ذليلاً خائرًا منكسرًا.
- تذكَّر لحظة ما قبل وقوعك كنت طليقًا تتمتع بحرية حركتك، وبعدها قيدت حريتك وانحسرت انطلاقتك.
- تذكَّر أن الخطأ خطأ. فما بنى على خطأ فهو خطأ. نتيجة وفعلًا مهما حشدت له من تبريرات واستطراقات.
- تذكَّر موقفك وقد زج بك فى السجن حزينًا.
- تذكَّر ضعفك وأنت فى قبضة السجَّان يقودك إلى أن يضرب عليك باب القضبان.
- تذكَّر أن الغلط يبدأ بفكرة، قفزت إلى ذهنك تجاوبت معها مطلوب فحصها وتحليلها؛ لئلا تكون ضحية لها.

- تذكَّر أن النار من مستصغر الشرر، فلا تدع فكرة شريرة تحرق أوراق حياتك.
- تذكَّر ما سمعته وما شاهدته عن أعمال منكرة أين آلت بأصحابها وكيف أضحى حالهم بعدها.
- تذكَّر حكمًا قيلت وقصصًا رويت من واقع الحال، ومن أشخاص زلَّت بهم أقدامهم وأوغلت بهم رغباتهم، زلات تمنوا لو لم تكن حتى إن بعضهم يحاول لو استطاع طمسها من ذاكرته تلسعه كلما لاحت ذكراها، لا يزال يعانى آلامها ويكابد مآسيها ردحًا من الزمن .
- تذكَّر أن بين لحظة التهور ولحظة التعقل برهة وجيزة من الوقت، اطرح على نفسك سؤالاً، قل: هل أنا مصيب؟ فسوف تبدأ سلسلة من التساؤلات تطفوعلى السطح مثل: ماذا سيكون عليه أمرى لو انكشفت؟ أين سأبيت الليلة لو قبضت متلبسًا بفعلتى؟ هل من سيتعاطف معى أو من سيلومنى ؟ ما موقفى أمام أحبائى وأصدقائى وأقاربى وزملائى؟ تصوَّر السجن وأهواله والحبس وآلامه والفضيحة وعيبها، برهة بسيطة لا تساوى شيئًا فى قياس الزمن كفيلة بنقلك من حالة التهور إلى حالة الاتزان، وتذكَّر وضعك وأنت تساق سوقًا إلى التوقيف والتحقيق ثم إلى القضاء فالسجن. جريرة فعل طائش فى سويعات من الزمن أجبرتك عليها رغبة جامحة تقعدك شهورًا وربما سنين حبيس السجون، هى برهة من التذكر لو استجبت ووقفت عندها لما صرت لما صرت إليه.
- تذكَّر أن من يراهن على هواه يصرعه صرعة موجعة، ومن وخزته وخزة شهوة ولم يحسب حساب تبعاتها جرَّته إلى سوء عاقبة وما سيترتب عليها من عذابات مؤلمة وعنت نفسى برهة رحمانية تدفع هواجس وأخرى شيطانية فإلى أى منها تنقاد ؟ فهى فاصلة صراع بين فضيلة ورذيلة.
- خذ مثلاً: بعض الشباب بطبعه عجل، عندما يركب سيارته يحاول أن يزيد سرعتها، ليتجاوز الإشارة الصفراء، (بينما هى أصلاً وضعت من أجل أن تهدئ سرعتك ليس إلى مزيد منها)، قبل أن تضيء الإشارة الحمراء، فيصطدم بالقادم من الاتجاه الآخر. فإذا نصحه ناصح ألا يكررها مرة أخرى أو التقطته كاميرا ساهر فلا يأخذها مأخذ الجد حتى يقع فى حادث اصطدام بسارة أخرى. عندما يتذكر أن صاحبه كان محقًا.
- ثم سائق آخرلا يلتزم بربط حزام الأمان ويعتبرها تحصيل حاصل، فيأت من ينصحه فلا يعيره اهتمامًا حتى إذا ما وقع له حادث وصك صدره مقودها، عندها يتألم أو يتعرض

لكسور وجروح عندها يتذكَّر أن ناصحه كان مصيبًا فى خوفه عليه .

- خذ من شـواهد الحياة اليومية عشـرات من قبيل هذه الحوادث وقس عليها التصرفات التى تتراءى أنها بسـيطة ويمكن تجاوزها ليجد الشخص نفسه فى مأزق يتذكر وأنى له الذكرى وقد فات أوانها وحل بؤسها، فاقتيد بها إلى ضيق السجن.

تعلم كيف توطِّن ذاتك على سماع النصيحة والاسـتفادة من أقوال سـابقة وحكم ناضجة قيلـت على لسـان من عارك الحياة وخبر المواقف وصاغتـه التجربة وألفته الخبرة، روِّض نفسـك على أن تأخذ الحكمة من أهلها، واسمعها من ناقلها، فالحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها وتمثَّل بالأمثال فلها وقع المرشـد وفيها إشـارة للمتبصِّر، وكما يقال: اللبيب بالإشارة يفهم، فكن لبيبًا ترشد ولا تكن سفيهًا فتسفه.

الخاتمة

برأيك – قارئى العزيز – ما الذى يمنع شخصًا بعد أن اطلع على ما فدنا وذهبنا إليه من توصيات وتبيينات وتوصيفات أن يضعها نصب عينيه يعيها قلبه ويستوعبها لبه ويقلب أمره؛ ليوقى شر نفسه؟ يغمد غمادها يدس خباءها؛ ليجاهدها ويزكيها من براثين الزلات؛ صيانة لها من الهفوات. يردم معابر الأهواء سادًا منافذ الأشقياء مغلقًا أبواب الشر والتفريط بحق النفس والزج بها فى مسالك الإغواء؛ ليعيش فى وفاق مع ضابطات الشرائع ومستحكمات القوانين والأنظمة وآليات العيش المنضبط. فما من عاقل ذى أهلية إلا يرنو إلى ذلك؛ فإن لم يكن كذلك فهو قصورعقل وسقم ذهن ولا مبالاة بالنفس. يزج بها فى غياهب السجون وهو يرى ويسمع أم هو إملاء النفوس المستهوية أم هى مظنة مفرطة بسوء تقدير أم اعتماد على دهاء يحجبه عن عين الرقيب يعاقر ما يريد وكيفما يريد وكأنما شرائع الحياة صممت كما يتمنَّى ويهوى؛ جمع أطرافها فوجد حاصلها مغريًا وضرب أخماسها بأسداسها فجاء ناتجها مجديًا. زانت فى نظره وازخرفت أمامه أفقدته حساب الربح والخسارة. هام بزخرفها، سولت له السير قدمًا فى طلب الغواية، قصرت رؤيته عن إدراك أن النهاية خسران مهما كانت الدوافع والأسباب والمغريات خسران ذاته ومستقبل حياته ومتواليات مسيرته. سلّم مفاتيح نفسه لهواها ومرتع لذائذها ناسيًا أو متناسيًا أنه يسير فى خط معاكس، لا يقوى على الاستدامة مهما طال أمده فالانتكاسة واردة لا ريب فيها ولا شك. فيوم ينتكس يفزع فزعة توقظه من غفوة لهوه، ترتعد فرائصه لعقوبة تنتظره فيفتح سجل حساباته فيذكر أن حسبته كانت خاطئة وقع فى فخها يتجرع كأس مراراتها ثلاث عقوبات: عقاب جزائى. وعقاب معنوى، وعقاب نفسى.

قارئى العزيز: أحسب أنك تتساءل معى فلا تجد إجابة شافية لمن لبس عمامة الغاوين وتدثّر بجلباب المخطئين، فإن قدر لأحد محاورة أحدهم بعد خروجه من السجن فقد يوافق على مضض، فتراه عندما يحادثه يحاول أن يشيح بوجهه؛ خجلاً، يعتصرألمًا متحاشيًا تذكر ما وقع، وربما يتمنى لو يمحوها من ذاكرته أو يوجه لها (فيروسًا) يقتحم مراكز ذكراها؛ ليمحى ما علق فيها، ولعله يخفى وجهه بين يديه وكأنه يريد أن يسدل

ســتارًا بينه وبين محدثه هروبًا من واقعه متحسرًا على ما وقع فيه من تفريط مسايرة لمتعته وتلبية نداء شهوته أومطامع جاه أو جور نفوذ وعنفوان قوة، أنسته الإنصات لصوت الحق ومنطق الفضيلة، جانب الخيرية واتبع الشرورية. فلما وقعت واقعته انكشف غطاؤه وتقهقر إصــراره، رجع إلى أصله. ولذلك نكرر الســؤال بصيغة أخرى: هــل من وقفة يقفها بعض الخاطئين وثلة الغاوين مع أنفســهم قبل أن تدحرجهم مدارج الســجون ومتاهات العذاب الجزائى والمعنوى والنفسى؟!

الفهرس

صفحـــة

المقدمة ٣

تمهيد فكرة الكتاب ٥

مدخل الكتاب ٦

الحق والباطل ٧

السلوك السلبى ١٧

وقفات تنبيه ٣٥

عالم الإجرام ٣٩

الطريق إلى السجن ٤٢

فى السجن فات الأوان وحل الملام فما قيمة الندم ٥١

تلبيسات الشيطان تدفع الإنسان للغواية ٥٣

ظواهر سالبة ٦٢

قصص واقعية للتدبر ٦٨

بعض العلاقات وبال ٧٦

ومضات حكم الأمثال ٩٠

نصائح وعبر ٩٣

تصورات واقعية ٩٦

تذكيرات ١٠٣

الخاتمة ١٠٦

الفهرس ١٠٨

طبع بمطابع دار المعارف